فكرية شحرة

نصف روح

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

فكرية شحرة
نصف روح

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نصف روح

فكرية شحرة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-01-2760-9

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إهـــداء

إلى روح أخي حميد .

كنتَ قادماً من بعيد .. فقد اشتقت لملامحك التي لم تعد تأتي..

تحسّست وجه الغياب بشوق وقلت لك :

_ أنا لم أجد بعدك صديق..

قلتَ بحزن: رحم أمي منذ ماتت لن تحمل المزيد ..

قلتُ : وماذا أفعل إذا اشتقتُ لك ؟

ضمّني قلبك الكبير وهمستَ: تركت لكِ أشيائي التي أحب ..

وغادرتَ إلى المكان الفسيح .. ترافقك إلى الصباح الدموع..

أطل الضياء كئيباً، يفتح النوافذ في كسل ..

نهضتُ دون أن أدعك بقايا الكلام بين جفنيّ أخشى وجه اللقاء أن يرتحل..

لملمتُ أشياءك التي تحبّ؛ فقد نامت على وسادتي ككل ليلة حين أغفو وأنا أكتب.

المحتويات

العرجاء 9

صدفة حب 19

الشاعر 27

زوجة لرجلين 34

القلوب النظيفة 39

المنديل الورقي 43

الميراث اللعين 46

الهاربة 51

العائدون من النسيان 56

ضحية شرف 72

بنت الأصول 79

حبيب العمر 92

أمنية قاتلة 100

قلب أم 105

صديقي الشاي 110

من حقي أن أتألم 113

ذكرى عذبة 118

حكاية أسيرة 122

المرأة الأخرى 127

العمر عام فقط 132
نصف روح 138
عشق الأماكن 146
ضد النقاب 151
الغبية والوحش 160
خيانة 162
الراعي والطفلة 165
مجزرة خيرية 169
مجنون 172

العرجاء

جلست في ظل الشجرة منكفئة على نفسها كعادتها.

أصابعها تنغرز في التراب الرطب دون أن تشعر. يتردد في مخيلتها صوت الراعية التي مرت أمامها قبل قليل وهي تسخر منها قائلة:

– من الأحول الذي سماك «بدور»؟ لو سماك «قدور» كان أنسب، وقدور يملؤها السخام أيضاً!

كانت قد رفضت أن تترك مكانها للراعية الممشوقة، فصفعتها بعبارات السخرية والاستنقاص ثم غادرت.

فكرت: ليتها كانت بدراً واحداً!

لكن لماذا تبتئس من اسمها؟ الجميع يناديها بالعرجاء، ولا علاقة لها ببدور هذه.

تظل بدور في الوادي أغلب يومها، ترعى بقرة الأسرة «ملك»، والتي تعتقد أمها أنها أكثر نفعاً من بدور نفسها؛ فهي على الأقل تدر اللبن والسمن.

حتى أنها تكره ساعة عودتها إلى بيوت القرية، تكره مرورها هي وبقرتها أمام فتيات القرية وفتيانها، ونظرات السخرية من مشيتها.

تكره تلك التعليقات التي تقارن بين خطوها وخطو بقرتها الحامل.

لم تكن هكذا من قبل.

تتذكر جيداً إلى وقت قريب أنها كانت ترفع الحجارة من الأرض، وترمي بها فتيان القرية حين يتندرون عليها، وتلقي في وجوههم أيضاً ما تيسر من السباب واللعن والشتائم.

لكن حين أصبحت فجأة فتاة شابة، أصبحت تستحي من خطوها الناقص. كما تستحي أن تقف كي تقذف الحجارة على هؤلاء السفهاء، وتستحي أنها هكذا عرجاء.

تحاول وهي تعرج في مشيتها أن تنكفئ على نفسها حتى لا يلاحظ الآخرون ذلك الصدر المنتفض في جسدها الناحل.

هي شابة ككل الفتيات في القرية تتمنى أن تسمع كلمة عذبة تمتدح شيئاً منها، أي شيء؛ فهي ليست مسخاً أو غولاً قبيحاً! إنها فتاة، لها قلب حالم مثل كل القلوب. تتمنى أن تكون مرغوبة ومحبوبة، وليس محلاً للسخرية والتندر طوال الوقت.

كل يوم، على مشارف بيوت القرية، تعد نفسها للمخاض اليومي العسير.

فنساء القرية يحببن أن يتبادلن الأحاديث في الأزقة الضيقة بين البيوت، ويراقبن الذاهبين والقادمين.

حتى رجال القرية وشبابها يترصدون قدوم الراعيات من الوادي كي تحظى الجميلات بالإعجاب والخاطبين. إلا «بدور» التي تحظى بكلمات الرثاء والشفقة، وهي أشد إيلاماً من كلمات السخرية والاستهزاء.

فكرت: حتى الكلمات الجميلة هي أرزاق أيضاً، يحظى بها بشر دون آخرين، وحتى الحب حين يأتي يُرزق به آخرون غيرها.

هي لم ترزق سوى هذا القلب الطيب الذي ينسى الإساءة

ويتحمل الألم، والذي لا يبحث عنه أحد.

وصلت إلى البيت المظلم بعد الغروب. هكذا هو قلبها الآن مظلم وبارد، لم يخلق لها سراج يضيء قلبها الحزين؛ فهي فتاة عرجاء قليلة الجمال. من يفكر في راعية تظل طوال يومها في الوادي، تداعب التراب بأصابعها؟!

سمعت أمها تناديها من وراء الدار فخرجت مسرعةً نحوها، وابتسمت في ذلك الوجه المتغضن:

– عدت يا أمي، والبقرة في أحسن حال؛ أكلت حتى شبعت، وأحضرت معي عشاء لها من الوادي.

هزت الأم رأسها باستحسان:

– أحسنت يا بنيتي. اذهبي كي تساعدي زوجة أخيك في إعداد العشاء، سيصل إخوتك وأبوك بعد صلاة المغرب.

تحركت بدور وهي تبتسم بمرارة.

هكذا كل يوم... تمر كل الأيام برتابة قاتلة منذ سنوات، منذ بدأت تحصيها عداً، علّ جديداً يحدث في هذه الحياة التي تمر كطاحونة تأكل الهواء فلا تشبع أو ترتوي.

تتمنى في أحلامها السرية، وهي تتمدد في فراشها القاسي، أن تصبح فتاة مكتملة لم تخلق بساق أصغر من أختها، تتمنى أن ترقص وتدور حول نفسها، أن تضحك يوماً من قلبها.

حين تستيقظ مع الفجر تحاول جاهدة أن تكون الأولى في الوادي المتشعب، وأن تختار أصعب الأماكن وأعلاها حتى تبقى هناك بعيداً عن الأنظار والأسماع، تتأمل في الاتساع الرحب للأرض، وتدندن بصوت حزين:

«يا رب من كان له حبيب لا تحرمه من حبيبه».

ذلك اليوم اختارت مكاناً لا تصل إليه الراعية الممشوقة القامة طويلة اللسان، واكتفت بإطلالة للمكان تخلب اللبّ لجمالها، وتنهدت أنها تشعر بجمال الكون كله فلماذا لا يشعر من حولها بجمالها؟

عادت تفرك ذرات التراب كأنها تبحث عن حظها الضائع. تنبهت لوجود شخص في المكان غيرها هي وبقرتها، ونهضت ليطالعها وجه ذلك الرجل.

بدا شاباً ثلاثينيّ العمر، يحمل في يده فأساً صغيرة ويحاول أن يستطلع المكان.

يبدو غريباً عن القرية أو أنه ضلّ طريقه إلى مكان يقصده. لم تستطع منع نفسها من التدخل الفضولي فصاحت به:

– يا أنت، هل تبحث عن مكان ما؟!

التفت الرجل نحوها وتعلق سؤال في نظراته: ماذا تفعل هذه المرأة هنا، بعيداً عن القرية كثيراً؟!

اقترب منها وهو يقول:

– لا يا أختنا، كنت ماراً فحسب، أنت ماذا تفعلين في هذا المكان المنقطع؟

لم يخالجها الخوف من رجل غريب في مكان بعيد، فقالت وهي تجلس تخشى أن يلاحظ عرجها:

– أنا أرعى بقرتنا، هناك، والمكان ليس منقطعاً، الناس يمرون مثلك، ثم إنني أحب أن أقوم بالرعي وحدي.

ضحك باستغراب:

– هـاه! وحـدك! ولمـاذا وحـدك؟ هـل تنتظرين شـخصاً ما؟
وابتسم بخبث.

أدركت تلميحه، وخالجها شعور بالراحة، هو يعتقد أنها مرغوبة من شخص افتراضي فضحكت وهي تقول:

– لا، لا أنتظر أحداً، ولا أحد يرغب أن أنتظره، وتنهدت.

فكر الرجل: تبدو هذه الفتاة على الفطرة بريئة ومسـلية. جلس على حجر قبالتها وهو يقول:

– لماذا؟ هل رجال قريتك كلهم مصابون بالعمى؟

أجابت بحزم وهي تنهض من مكانها:

– لا يا هذا، أنا مصابة بالعرج ولا أحد يرغب في عرجاء وغير حسناء.

ابتعـدت وهـي تعـرج في مشـيتها تـكاد تلامـس الأرض حزناً وإحباطاً. أدركت أن الرجل قد يلقي كلمة مشفقة تنغرز في مسامعها وينصرف؛ لكنه لحق بها يحاول أن يحاذيها.

لقد شعر بالشفقة نحوها.

إنها في أعماقها تشعر بالنقص والعجز. حاول أن يخفف عنها ذلك الإحباط الذي ارتسـم على وجهها الأسـمر المكتنز. قال وهو يقف معترضاً طريقها:

– لمـاذا تقوليـن ذلـك؟ أنت لسـت أول عرجـاء على كوكب الأرض، هذا نقص جسـدي بسـيط، ارثي لحال من يعانون نقصـاً روحياً أو نفسـياً. أنـت هنا تتمتعين بالجمال حولك. غيرك لا يرى في الكون أي جمال.

جلسـت بـدور. كلامـه اختـرق قلبهـا. هو يعتقـد أن غيرها من

يستحق الرثاء أو السخرية، هو يراها تتمتع بشيء ما، روحها الجميلة.

لم تشعر بالوقت يمر، لأول مرة منذ سنوات لا تشعر به يمر على صدرها مجنزرات ثقيلة. لقد مر كالسحاب بارداً ومشبعاً بالرحيق.

جلسا يتحدثان في كل شيء تقريباً، عن القرى البعيدة والقريبة والأمور القريبة والبعيدة.

نهض وهو غير راغب في النهوض، يفكر: إذا كانت هذه الفتاة تملك شيئاً، فهي تملك قلباً طيباً وحنوناً ربما لا يعرفه من حولها. أخبرها أنه عائد إلى قريته، وأنه إذا مر من هنا فسيسلم عليها بكل تأكيد.

أصبح لبدور شيئها الخاص الذي تنتظره بشوق، وترسم خيالاتها حوله؛ إنه «صالح»، حتى لو لم يكن يفكر فيها أو يدري في أي واد هلكت. هي تفكر فيه وتحلم بحبه لها.

ولأيام طويلة، كانت بدور تذهب إلى ذلك المكان، تضع الكحل في عينيها وتنتظر أن يشرق هو من أي مكان، أن تمتع عيناها بطلعته السمراء وعينيه الحنونتين.

لقد أحبت عينيه كثيراً، هما الوحيدتان اللتان نظرتا إليها وأحستا بجمال روحها.

تنتظره، والانتظار مسامير في القلب تدق مع كل لحظة تمر بلا أمل في الظهور.

لكن بدور في انتظارها الحزين تشعر بلذة الشعور الجديد؛ أن تحب وأنت تشعر بالأمل، أن هناك من يهتم بها فعلاً، وربما يبادلها الشعور.

وكأن الأقدار أشفقت على بدور، كما يشفق عليها كل من يراها

تسـير. ظهر صالح ذلك اليوم. قادماً من بعيد لا يحدد وجهة معينة لنظراته المسـتطلعة. ربما نسـي صالح الفتاة العرجاء أو نسـي وعده لها.

خشـيت بـدور أن تظهـر لهفتهـا فيقابلها بـرود صالح. بدا عليه الانشغال. رآها فجأة أمامه وتذكرها، صاح كمن وجد شيئاً لا يتوقعه:

– بدور، كيف حالك؟

واستدرك: لقد مررت كي أسلم عليك.

لا تـدري كيـف قفـزت الكلمـات مـن بين شـفتيها رغما عنها. همست بفرح يطل من عينيها:

– كنت أنتظرك منذ ذلك اليوم. وغمغمت بحياء:

– قلت ربما تمر من هنا.

فاجأه ردها، فقال:

– انشـغلت ببعـض الأمـور، وأنـت علـى البـال... أفكر بك، ومشتاق أن أسمع كلامك العذب.

جلسا بقية اليوم يتحدثان في أمور تجد طريقها لتوها، لا يدريان كيف تأتي، لكنه حديث ممتع لكليهما.

هذه المرة نهض صالح وهو على يقين أن الفتاة المسـكينة قد وقعـت فـي حبـه أكثر مما يتمنى أي رجل. لكنه متزوج ولديه أطفال أيضاً.

كمـا أنـه لـن يفكر في الزواج بهـا.. لا، لن يفكر في ذلك أبداً. غادرها مودعاً، على أمل أن يراها مرة أخرى حين يتيح له وقته.

فـي الأيـام التي تلت، كانت بـدور كتلة انتظار حزينة، وعصب استشـعار لخطو صالح حين يشـرق كالشـمس من بين الغيوم التي

تتراص على قلبها.

بدور التي أصبحت كائناً آخر يضحك في الوجوه العابسة، ولا يبالي بنظرات الشفقة أو السخرية... بدور التي أحبت الحياة أخيراً.

ذات مـرة أخبرتـه بتلقائيـة أخافتهـا كـم تحبه، كـم هو مهم في حياتها، وأنها لا شيء دونه.

تحبه كيفما كان الأمر، وتعرف أنه بعيد كالشـمس، إن اقتربت أكثر احترقت، وإن ابتعدت قتلها الصقيع.

صالح، الذي يتلهى برؤية جمال النساء في القرى التي يمر بها، خانته الشجاعة أن يوجع قلباً طاهراً يحب لأول مرة؛ فهمس حزيناً:

– وأنـا أحبـك يـا بدور. لكنـي لا أدري ماذا أفعـل. أتمنى أن تكوني سعيدة؛ ولكني عاجز أن أجعلك سعيدة. تعرفين أني متزوج. الأمر صعب كثيراً. أنت تفهمين.

همست بدور بصوت ذبيح:

– أفهم، أفهم يا صالح، وأنا لا أطلب منك الكثير؛ فقط قلب محب مخلص.

ليلتهـا، بكـت بـدور كثيراً، لا أمل أن تكون مع من تحب. ربما لا يريدها، ربما هو قدرها الذي حكم مسـبقاً، ربما وربما... لكنها لا تستطيع أن توقف نبض قلبها إلا بالموت.

كل يـوم، وهـي ذاهبـة للمرعـى، كانـت تخـاف عيـون الرقباء كمـا كانـت تخشـاها من قبل وهي تحدق فـي عرجها، وتكره أقوال أصحابها.

خافت سـابقاً كونها مادة لسـخريتهم. والآن، تخشـى أن يراها أحدهم مع صالح، سـتكون أكثر سـخرية وعاراً، سـتكون (العرجاء

السافلة) هذه المرة.

ورغم خوفها من أن يعرف أحد سرها؛ كانت بدور تزداد تعلقاً وشغفاً بصالح، تظل لساعات تحدق في تفاصيل وجهه بشوق، وهو يتحدث عن كل ما يصادفه.

تحفر في خيالها تلك التفاصيل كوشم نافذ في القلب. استسلمت لعاطفتها بلا قيد أو شرط أو حتى تعقل.

أدرك صالح ذلك الانقياد الساحر منها، ومقاومتها لمخاوف الفضيحة التي ستلحق بها وبأسرتها.... تعرف بدور أنه لن يكون هناك بقاء لها في الحياة؛ فقد فرطت في شرفها وأهدرت شرف عائلتها بنزوة حب تعرف أنها من تتجرع نتائجها وحدها.

فصالح مجرد رجل لا تعني له الكثير، سيرحل ببساطة، ولن يحاول حتى سؤالها هل ستكون بخير، سيتركها لتساؤلات تنهش راحتها؛ ماذا لو رآها أحد ما مع صالح؟ كيف ستقابل أهلها وقد كللتهم بالعار؟

لقد أصبحت في كل مرة تخشى العودة إلى القرية؛ ربما قد سبقها في الذهاب خبر مشؤوم. الآن يعتصرها الخوف والألم؛ لكنها أحبت صالح. أحبته؛ لأنه الوحيد الذي لم يسخر من عرجها أبداً. كان قلباً حنوناً، وإن تركها تلاقي مصيرها وحيدة.

خطواتها تجرها إلى القرية جراً. حتى عرجها بات أكثر صعوبة وألماً وحرجاً. وعلى مشارف القرية، قابلت الراعية الممشوقة. كأنها كانت تنتظر قدوم بدور. حاولت بدور تحاشي الفتاة؛ إلاّ أنها اعترضتها عنوة وهي تقول بصوت عال:

– هاه يا قدور، لقد أصبح لكل ساقطة في الحي لاقطة. ألم

تجدي غير طريق العار والفضائح يا عرجاء؟!

تجمـدت بـدور. حدث ما يرعبها فـي كل لحظة. لقد فضحت علـى المـلأ. لعل القرية كلهـا علمت. ولماذا تعود إلى القرية الآن؟ كي ترى وجوه والديها وإخوتها مشتعلة بعارها؟ أن تقتل على أيديهم فتموت مرتين؟ إنها لا تستطيع أن تنظر في وجوههم أبداً بعد فعلتها.

أفلتت زمام بقرتها «ملك»، فهي سـتعرف طريق العودة دونها. لعلهـا بالفعـل، كمـا تقول أمها، أكثـر نفعاً من بدور وتعقلاً. وعادت أدراجها نحو الوادي. ستغرب الشمس قريباً، ستغرب أكثر من شمس هذا اليوم.

اتجهت نحو تلك القمة المنحدرة التي يخافها الرعاة ومواشيهم. ظلت تصعد فترة طويلة. كان ارتفاعاً شـاهقاً ومنحدراً مخيفا. تذكر أن بقرة لعائلة في القرية سـقطت من هناك، لكن لا أحد كان يجرؤ أن يقترب من أشلاء جثتها التي تقاسمها جن المنحدر.

وقفت بدور في مواجهة الغروب تشاهده لآخر مرة. كان انبعاث دموعها في تدفق غزير يحجب عنها رؤية الجمال لآخر مرةٍ. اختلط شفق الغروب بابتسامة صالح الحنون وهو

يهمـس فـي أذنها: «أحبك، أحبك، لا تخذليني». ورمت بدور بنفسها من ذلك المنحدر الشاهق.

الآن فقط لن تخذله، ولن يخذلها عرجها مرة أخرى.

صدفة حب

ذلك الصباح الذي أشرق مرتين، في مكانين مختلفين احتوى أحدهما الآخر. فقد أشرقت شمس أخرى في صدرها وهي ترى ذلك الرجل يقف منتصباً كالجبل وسط الساحة، وكل الرجال حوله حصى صغيرة.

وقف يدعو الناس إلى اليقظة؛ فمازالوا نائمين منذ قرون، ما زالوا على سكرتهم يأكلون ويشربون فقط، ونسوا في زحمة الغرائز الحيوانية أن يفكروا أيضاً.

كانت مصادفة, قادتها أصابعها وبعض الفضول، فرسمت لوحات جميلة التقطتها من أعماقها بعدسةٍ حساسةٍ خيالية، وغلفتها بعبارة «سري للغاية». ولع الفضول جعلها تبحث عن حقيقة هذا القلب البعيد.

ربما سمعت دقاته تفكر في فتح أقفالها العصية فعشقت تلك الكلمات وما ينطق العقل، وصارت قرباناً بلا آلهة، ناسكة أخرى عذراء القلب في محراب الحب، واستحال الفضول إلى إدمان وولع.

صار اليوم كله صباحاً مشرقاً، وسكينة الليل علقت على المشانق. صارت الحروف كلها سبياً في المعارك، لا تقاد بالسلاسل؛ إنما بشوق جارف.

والكلمات إماء راكعات تحت قدمي إله عاشق، يصرف الحب بقواعد وقوانين طبقا للمزاج الرائق. كانت صدفة، والقلب في غنى

عن صدف تحدث في عالم آخر.

من سياج نافذتها المطلة على الشارع الواسع، تأملت عينيه البعيدتين جداً، وشعرت بحزنهما وحنانهما الممزوج بالسخرية من كل شيء حولهما.

تأملت شفتيه الممتلئتين في إغراء، وذقنه الجرداء القوية، وجسده النحيل المرهق في صمود.

تأملته كثيراً، وحفرت ملامح روحه كنقش فرعوني لا يزول من قلبها أبداً، وحفظت كلماته القوية المهتاجة في جموع الناس؛ حفظتها ككتاب مقدس خاص بها.

وما هي إلّا ساعة حتى اختفى واختفت معه أشياء كثيرة؛ أشياء كانت مهمة، كالراحة والسكينة، وأشياء كانت غير ذات بال، كالرتابة والنقاء.

وهنا بدأت قصتها.

كانت قصة طرزها الخيال بإبر حادة وجعها أكبر من متعتها؛ فكل الأماكن الجميلة التي زارتها في مخيلة الأحلام المنتشية بالوهم، كلها تشي بقصة خارج نطاق الحقيقة والمألوف.

لقد عشقت وهماً كبيراً، وكثير من الكلمات التي لم تُقل لها، قيلت لآخرين أو أخريات.

لكن هي من عشقت الكلمات، وعاشتها بكل حواسها، وكان يجب أن يشاركها خيالها هذا الكائن الجميل، فصنعته بعناية.

يجب أن يدرك أن خلف إحدى النوافذ عاشقة تسترق النظر لشيء لا يخصها، وأن يدرك كم هي مميزة في روحها؛ تكاد أن تكون نصفاً لروحه. وفي خيالها الفسيح بادلها النظر، وارتسم الفضول في

عينيه الحانيتين.

تحدثا حديثاً عابراً؛ أرادته حديثا عابراً يثير الفضول كي يكون هناك موعد آخر.

في خيالها المترنح، هناك كل يوم موعد جديد وشوق يتزايد. حين يلتقيان ترتدي الكلمات وتتزين بحروف الدفء الصادق. تتمنى أن تلمح في عينيه إعجاباً يشبه هذا الحب الذي في قلبها.

– شكرا لأنك تشرقين.

كانت أول كلمة سمعتْها .. وغشيها السكر. ترنحت لدفء الكلمات؛ كأن الشمس أشرقت في جسدها كله.

أصبح الامتنان للّقاء صلاتها اليومية. تتشوق _ كالظمآن _ لكلمات تذهب وتأتي في كل واد إلّا واديها لكنه سبيلهما معاً. أذهلها هذا الجمال الروحي المتعالي في غرور، وذابت كل حصون الشمع أمام الوهج المتألق كالسحر.

في خيالها المنهك من الشوق، تفقد السيطرة على قلبها، فيغتصب قلبه في لحظة ضعف:

– أحبك

قالتها كل الجوارح وهي تلهث بالهزيمة ... لقد سقط الصبر.

ظل مدهوشاً. ربما يحب الرجل أن يبقى رجلاً؛ لا أن تغتصب امرأة مشاعره جهراً.

وكانت تعلم أن أي تصريح يدلي به سيكون مجاملة أو ذكاء. كم تمنت أن تقرأ أفكاره في تلك اللحظة حتى لا تموت.

تمنت كثيراً أن يكون هو من قالها أولاً؛ لكنه لن يقولها أولاً أبداً.

ربما لأنها ليست جزءاً من خياله الفسيح. ليست سوى شيء عابر في حياة رجل الصمت والأسئلة المعلقة التي لا تجد إجابة, رجل الخيال والانتظار والكلمات المتقاطعة. لكنه قالها وأسرف بعدها في قولها؛ بل جعلها إجابة لكل سؤال لا يريد أن يرد عليه.

جعلها نقطة في آخر كل سطر، وبداية لصفحة جديدة. ربما لأن خيالها من أرغم لسانه على قولها. ربما لأنها اغتصبت لسانه في كل مرة تفكر به.

في خيالها الملتاع صورة اللقاء الأول، هل كان جسدها النابض بالشوق واقفاً أم كانت جالسة؟ هل رفعت عينيها تتأمل ملامح نسختها مخبأةً في الداخل، أم انكسرت نظرات

الشوق المذل؟ هل مد يديه، أم ألقت بجسدها؟ هل كانا اثنين أم جسداً واحدا؟ كان خيالاً عابثاً بالخيال.

تخيلته على أكثر من رواية رواها قلب يعشق الأساطير؛ لكن كل الحواس أجمعت أنه كان أكثر الأحلام فضفاضية واتساعاً، وألذها وقعاً.

في كل مرة، تكثر التفاصيل وتزداد حدة في الارتواء. حتى أصبح لعبة في أوقات الفراغ، تستمد منه طاقة ربما حتى يأتي اللقاء.

على قارعة الخيال والوقت بلا زمن، عاشت تفاصيل الحلم الدقيقة حين كان يحلو الخصام. تمرغ قلبها في ذل الاعتذار واستجداء العاطفة، وكان متوحشاً في البذل والغفران، شحيحاً كأن خيالها عجز عن ترويضه.

لكنها عشقت حتى قسوته، وكل تفاصيله الصغيرة. الناس فيما يعشقون مذاهب؛ ولقد ذهب بها عشقها حد الجنون.

لكـم تسـاءلت: هـل يسـتحق كائن يقبع في منطقـة بين الوهم والسراب كل هذا التيه في الحب؟!

فحين يكتسحها الشوق كثلج الشتاء ويوقف فيها سير العروق، تحن كثيراً لصوت حقيقي ينطق الحروف، يلفظها بزفرة حيناً، وحيناً بصوت شهيق. تهمس: «أحبك» سبعين مرة؛ كأنه ورد من الاستغفار، علّ النسيم يحملها إلى أذنيه فيدرك أنه مازال في الدنيا إماء لعاشق جبار.

فـي ركـن خـاص وجميـل مـن خيالهـا الخصيـب، التقتـه بعد اسـتجداء مميت. دائماً تسـتجديه اللقاء وتسـتجديه الحروف؛ كأنه كان غاضباً، متبرماً من لهفة وإلحاح أصبحا يرهقان أوقات الفراغ.

قال:

– ألا تملين هذا الخيال؟

وابتسم:

– أحب لهفتك وجنونك!

همست:

– أمـا أنـا فأحبـك كلك. لقد روضت خيالـي حتى صار قانعاً بخيالك، قانعاً بكلمات تشبه الأحجار أحياناً، تدمي وتوجع، وأثرها كدمة سوداء في صفحاتي.

– دائما تعشقين العتاب، وتزينين صبارك بالشوك في وجهي. سـامحيني. أعـرف أن قسـوتي تؤلمـك. أنـت حبيبتـي التـي جاءت متأخرة، التي أتت وقد نضبت حروفي، وتغير مجرى مشاعري إلى وجهة هي أبعد من احتمالي.

همست بوهن:

– أعتذر، ويا الله كم أقولها. أقبل منك ما تفيض به مشاعرك ووقتك، فأنت معي في كل وقت وحين. أنت داخلي أنا، وأنا أستحضر روحك كلما اشتقتك. فلا تجعل خيالي يرهق خيالك.

– أنت لا تفهمين. أخشى عليك وعلى نفسي خيالك، هذا الخيال شائك وحوله حفر الواقع وقيوده. كفى عبثاً بوقتي ووقتك.

– أتقصد أن تحرمني من وجودك؟!

ـبل أحرم نفسي وجودك. لدي ما أهتم به وأصرف عليه تفكيري ووقتي. لدي حمل كبير فلا تزيدي أحمالي بوجودك. أنهكتني الحروب وأرغب في النصر الأخير!

تجمدت، ثم تكسرت شظايا صغيرة على صورة حروف نطقتها بوجع:

– وماذا قد خسرت من أجلي؛ بعض الكلمات الجافة كطوب المباني، أم هي بقايا مشاعرك المجمدة في ثلاجة صدرك من زمن المشاعر العابرة في حياتك؟ ماذا قد خسرت من أجلي يا حبيبي؟ وأنا التي أوقفت لك خزائن حبي، أنا التي أقمتك إلها لقلبي، أنا التي بعتك كل أيامي وروحي؟!

إنما .. اذهب، أنا صنعتك من خيالي. كل جمال روحك أنا تخيلته. أنت قاس كحد السيف، بارد كالحديد, مؤلم كالموت، عصيٌّ كأنت..

واستفاقت بخيال مريض، ظامئ لوجود المستحيل. كم تمنت أن تلتقي عينيه حين الوداع؛ ربما تلمح فيهما بعض الحنين أو رغبة في البقاء.

كان أقسى من أي خيال. ربما تنساه يوماً، ربما أو حتى تنسى نفسـها، ربما يأتي يوم لا تشـرق فيه الشـمس كي تذكرها كيف كان يشـرق كالشـمس فـي قلبهـا، ربما تتصالـح مع خيالهـا؛ فيكف عن تعذيبها بخياله..

تلك الغيمة التي كانت في الأعلى رافقتك ظلاً تحت قدميك.. روحاً تحرسك بالدعاء.. مطراً بالحب اللامتناهي.. تلك الغيمة بعثرها إعصار تجاهلك وقسوتك.. تلك الغيمة.. كانت أنا..

فكرية شحرة

الشاعر

على رصيف الحياة، في ذلك الوقت، حين يبدأ العمر بالتفكير بجمع أموره وتجاربه المهمة في حقائب الرحيل القريب.. في ذلك العمر تحديداً حين يصل العقل سن البلوغ أو الرشد.. كان اللقاء..

كان شاعراً، وما أخطر الشعراء حين يكونون في مرحلةٍ عمرية عقلاء. وكانت أنثى تتخفى خلف صلابة سيدة تراكمت في طريقها الأعمال فلم تر أبعد من أنفها حول الرجال، فلم يكونوا سوى كائنات أقرب للزواحف، شركاء عمل أو رفقاء حياة حتمت الطبيعة وجودهم.

هي التي أزاحت من جدول أعمالها كناشطة في مؤسسة ثقافية كائن الرجل واكتفت بلقب مرقع هو عانس مثقفة؛ لقناعتها أن لا أحد من الرجال من يستحق مشاطرتها ثقافتها وإحساسها المرهف.

كان تعارفهما مثقفاً وإلكترونياً يشبههما، فقد كان عليها – كمسؤولة علاقات في المؤسسة الثقافية – أن تستقطب ذلك الشاعر المبدع بدعوته إلى مدينتها لإحياء أمسية شعرية حصرية مع بعض الفعاليات الثقافية التي تفخر المؤسسة التي تنتمي إليها بعملها سنوياً.

وخلال مراسلات بريدية كثيرة بينهما للاتفاق على وقت يخصصه الشاعر للمؤسسة. نسيَ كل منهما ما الذي كان سبباً لهذا التواصل الذي اكتسح في طريقه برودة ورتابة غلفت كثيراً من المشاعر الإنسانية في كيان كل منهما.

صارت ترسل إليه أحياناً نصوصاً تتمنى أن يطلق عليها تسمية الشعر، وأصبح يعدل لها الكلمات والأوزان ببراعة حتى أفقدها التوازن في كل شيء.

كان تبادلاً لأشعار كتبها شاعر مبدع وأخرى حاولتها عاشقة الشعر التي تحولت إلى عاشقة الشاعر دون أن تتلافى نفسها، وأصبح التبادل الثقافي تبادلاً للأحاديث في كل أمر.

قص عليها حكاية أجمل قصائده وأروعها، لقد كانت ككل قصائد الشعراء الخالدة نظمت لحبيبة سرية لا يعلمها إلاّ قلب الشاعر حيث سكنت وتملكت نبضاته، ثم حالت الحياة بين الارتباط المأمول.

هزها جمال الصدق في تلك القصائد ولوعة الحب الذي لم يكتب له الاستمرار على الأرض كما هو في القلوب.

حباً عاصفاً متأججاً، ورغم إعصاره الكاسح إلا أنه أنبت أجمل قصائده الشهيرة على الإطلاق. يحكي لها تفاصيل قصة الحب التي خاضها في شبابه كما تخوض السفن العملاقة البحار، لا هي تغرق ولا هي تشرب، كأنه يحن لأيامها الغابرة أو يفر من ظمأ انتاب حياته الحالية.

تعارفهما لقاء أرواح كأنك تحدث نفسك، تقف أمام مرأة هي الشاشة وتتحدث بأشياء لا تكلم بها سوى نفسك.

في تعارفهما الجميل اختلف كل شيء احتواهما بنفس قرب كل شيء فيهما فكانا كذكر وأنثى.. كشمس وقمر.. كسماء وأرض.. كهو وهي..

لقد تعرفت على تفاصيل حياته كأنها عايشتها، وأصبحت

تعرف حتى تفاصيل ملامح زوجته وطباع أولاده.

ولأنه شـاعر أغرقها بعذوبة كلماته ورقي ثقافته التي تجاوزت ثقافتها بمفاوز ومراحل، فانضمت إلى قافلة نسائه بتعلق أصبح مع مرور الأيام والشهور عبودية استحلى وقعها قلبها المتمرد دوماً.

ولا بـد مـن اللقـاء بعـد أن ربط بينهما الحب.. لقـد أتى أخيراً إلى المؤسسـة الثقافية كي يحيي أمسـية شـعرية، وكي يبعث الحياة فيها هي أيضاً.

هـو اللقـاء الأول لعمرها البريء هدية كبلتها شـرائط المفاجأة المنتظرة من زمن الأحلام. زخرفتها تبدو مدهشة بروعة اللحظة التي أفلتت على غفلة من القدر.

أقصـى مـا كانـت تتمنـاه هي، هـو اختلاس النظـر وجها لوجه لحكايـة القلـب الأجمـل. وهـو الذي خالـف كل قوانين الشـعراء، فشـهدت تلـك اللحظـة ارتجـاف أصابـعٍ خطـت قصائـد الجـراءة، ارتجفـت فـي ارتبـاك متلهف، وفـي رهبة تلك الغفلـة الحلم انتصر الرجل فيه كي يطلب أدنى مستويات الجوع الذي لن يشبع.

لكنه عاد خائباً فشرائط الهدية المبذولة في ضعف الحب صعب أن تسلمها الأصابع المرتجفة للطرفين يحرسها الخوف والرفض.

همس الرجل الشاعر:

– لم أرغب في امرأة كما أرغب فيك..

همس قلبها العاشق:

– لا يوجد امرأة تستحق إسعادك إلاّ أنا..

لقد أحبته بقداسة شعرية خالصة، أحبته وكانت من الإخلاص فـي حبهـا راغبـة فـي منحه روحهـا وكل يتمناه، أحبتـه كما لم يكن

الحب قبل في حياتها، وكان مفتوناً حتى التفكير بالارتباط الزوجي بها..

يقـال أن الخيال يسـرف في تصويـر جمال لقاء المحبين، لكن لقاءهمـا جعـل الخيـال يقـف مبهـوراً عاجزاً في دهشـة عشـقية عن إحداث هذا الفيض الجمالي من مشاعر اللهفة والشوق والحب.

وعلـى جسـدها المنتفـض رهبـة طبعـت عيناه عشـرات القُبل وكلمـات الغـزل، وأصبـح عنـاق العيون والتحام النظـرات لغةً أبلغ من كل الكلمات الشعرية التي سرداها في تنميق مثخن بالثقافة التي جمعتهما.

هل كان لقاؤهما نهاية لشهور الحب المثقف؟ أم بداية لمطالب الحب المتلهف المتملك؟.. كلما رآها تمناها، وكلما تمناها أصرت على الارتباط وبدأ عذاب المحبين الأزلي..

معـذب بيـن اشـتياقه وحبـه لهـا، وبين واجبه كرب أسـرة عليه الحفاظ على تماسكها.

ولأنه في مرحلة بلوغ رشد الشعراء، ترك عقل الشعراء العاشقين جانباً ليفكر بعقليه الأب المتزوج من امرأة لا تستحق إيلامها بالزواج من أخرى.

تنازعته الحيرة كثيراً موزعاً بين الحب اليائس للمرة الثانية وبين محبته لعائلته التي سيفككها ارتباطه الثاني.

وإنه اللعب على أوتار قلبها أكثر ما يؤلمه، هو لا يريد أن يتزايد تعلقها المفتون به وهو غير قادر على الوفاء لها بأحلام الحب تلك.

وكنهايـة لصـراع بيـن قلب الشـاعر وبيـن قلب الوالد، أرسـل لهـا رسـالة موجـزة تشـبه إيجاز رصاصةٍ، يخبرها أنـه غير قادر على

الارتباط بها وأنه حريص على عائلته وتماسكها، وأنه يتمنى لها حياة أفضل مع غيره؛ بعد أن أعجزته ظروفه عن أن يرتبط بمن أرادها قلبه للمرة الثانية.

قتلتها رسالته المقتضبة. هكذا يكون الموت حياً، بدونه ستبقى على قيد العدم، سيكون البقاء على قيد الموت أفضل. وكمعتوهة حنطت حروفه الأخيرة..

رغم محاولاتها الدائبة لاجتذاب الشهد منه مرة تلو أخرى مهما لدغها نحل الكلمات، إلاّ أنها كانت حروفه الأخيرة. تلت تلك الحروف في صلاة، واعتصرتها نظراتها العاشقة تبحث عن معنى خلف الجمود.

ارتجاف قلبها في خنوع لحال يشبه الموت قد زحف يظلل القلب بسواده، يكللها بكآبة واستسلام رافض (هو على حق في حرصه على عائلته..) وهي عاجزة أن تطلق لحواسها المتمردة أمراً بالتوقف مثله.

كيف تخَلى عن حبٍ مثل حبها له؟ لم يأتِ في كل عمرها سوى مرة واحدة كاشتعال عود ثقاب لمرة واحدة، لكنه أحرق كل حياتها.

هل أحبها فعلاً، أم كان مجرد رجل رغب في امرأة تجاربه وحرائقه أكثر من أن يحصيها؟

كيف صدقت «رجلاً»؟ كيف وقد كانت لا تراهم سوى حشرات زاحفة لا ترتقي لمستوى تفكيرها.. كيف أسلمت قلبها، عقلها لكائن منهم..؟

ربما ستغفر له يوماً هذه الإهانة برميها خارج أسوار قلبه الذي

عشـقت، ربمـا سـتتفهم يومـاً تفانيـه لعائلته، ربما ستنسـى ألم فقده والشـوق إليه وتنسـى ذاكرتها التي أزاحت كل شـيء إلا هو، ربما تتكيف يوماً مع مرارة الاستغباء التي وقعت فيها، ربما ستنسى الأمر كله يوماً..

لكنها أبداً لن تغفر له أو تنسى أنه لم ينضم من أجلها بيتاً واحداً من الشعر، يقول فيه أنه أحبها كتلك الأخرى، لن تغفر له أبداً أنه لم يجد في حبها ما يسـتحق بيتاً من الشـعر.. ربما لأنه لم يحبها فعلاً، أو تدنو فيه من قلب الشاعر.. ربما لا تستحق..

الآن فقط أدركت أنه كان يلهو بها كرجل يملك قلب شاعر لم تدخله هي أبداً..

أغبط كل دقيقة أو ثانية لأنها كانت في عمـرك.. قريبةً من نبـض قلبك بل كانت هي عطر أنفاسـك، تمنيت لو كنت لحظة التصقت بهذا العمر لم تغادره أبداً..

فكرية شحرة

زوجة لرجلين

أعـرف أننـي لسـت المـرأة الأولى أو الأخيرة التـي تتزوج بعد رحيل زوجها وسـأحاول إقناع نفسـي أنني لسـت المرغمة الوحيدة على هكذا زواج..

ففي مسارح الحياة الدرامية توجد أكثر القصص شقاء عن كائن المرأة التي يجب أن يكون لها حائط تتقي به عوامل التعرية الزمنية، أو تبكـي علـى كتفـه خيبات العمر، والتي قـد يكون هذا الحائط هو أكبرها.

لعلني لم أُترك كي أحيا تفاصيل الفجيعة، وكان لي متسـع من العمر لأتنفسها لو تركت.. لكنني أثق أنني المرأة الوحيدة التي تعيش مع زوجين..

أدركت ذلك يوم زفافي الثاني، حين احتفل الأهل والأصدقاء بزفاف جسدي متزيناً ببذخ مغر لرجل، وروحي المتناثرة شوقاً زُفت لرجل آخر، فحتى الأرواح تُزفّ لبعضها إن حتم الفراق عدم اللقاء روحاً وجسداً.

كنـت أرى بعينـيّ روحـي تغادرني كي تكـون مع من غادرني، ليبقـى هـذا الجسـد مـع من يملكـه.. وكنت موزعـة بينهما بلا روح أضمهـا بيـن جوانحي أو حتى جسـد أتكـئ عليه وقت الحاجة، كانا كلٌّ يلحق بمالكه..

فهـل علـيّ أن أكـون هكذا؟ لقد حاولت مراراً أن أجمع بينهما

روحي وجسدي، زوجي وحبيبي.. فلم أفلح..

عجـزت أن أرى طيبـة هـذا الرجل ومحبتـه لي؛ بعد أن عرفت افتتاني وعشـقي للآخر، ذلك الرجل هو من نبتُّ على يديه كالنواة فأصبحت شـجرة لا يحق لغيره أن يتمتع بثمارها الشـهية، فكيف لا يكون معنا على مائدة واحدة.

كان شاهداً على ضعفي الذي لم يكن إلاّ له، وأسكرتني نقاط ضعفه التي تمنيتها أمامي فقط، ذلك الذي كان يكره أن يكون هناك شاهداً لأي ضعف يعتري كبرياءه المترفعة.

معه عرفت سخاء العاطفة والبخل بها، عرفت متعة ذل الاعتذار كلما انصرف كإله أولمب زاهداً في عبادة قلبي له.

فكيـف يرحـل عنـي في حادث رحيل، وقد كان يسـبب لي كل حـوادث الحـب المدمرة، يجتاحني كإعصار لأكون ضحية شـواطئ حبه هو.

لماذا لا يغادرني كما غادرت أعماقه أنا..

ذلـك اليـوم وأنـا أتقـدم في خطواتي كفتيات النـذور في معابد الأضحيات، أتقدم للسلخ من خصوصيتي أو ولاء جسدي له، ذلك اليوم وأنا أتعثر في خيبة تقدم سـيري نحو الآخر، تمنيت لو لحقت بروحـي التـي غادرتنـي عنـد باب حجـرة النوم؛ معتـذرة عن الرضا بخيانتي الحتمية..

لم أكن لأفكر في التمييز بين الرجال بملامحهم أو أشكالهم، فالرجل عندي دائماً مواقف وأخلاق وعاطفة، إلاّ أنني كنت أبحث عن عينين كانت نظرتهما ترفعني فوق الغيوم، وتحولني غيمة مثقلة بالحب تمطر أعذب كلمات العشق والوجد، عن حاجبين مقوسين

كبرياؤهما يثير في أحشائي الوجع. كنت أبحث عن وجهٍ بجبينٍ واسعٍ لرجلٍ يسكنني قد أغلق كل منافذ قلبي فلا يرى أحداً سواه.

لم أكن أعرف هذا الرجل الذي في الحجرة خارج حجرات قلبي، ولا مجال لوجوده في هذا القلب فهو ممتلئ بالآخر. كنت مؤمنة بقوانين الفيزياء رغم عشقي للأدب، فلم أهتم بملاحظة كيف يبدو زوجي هذا؟

لا أعتقد أن شيئاً من طقوس الاسترضاء والتودد الذكورية قد علقت في ذاكرتي ذلك المساء وكل المساءات اللاحقة، فكل مساء كان ضريح وثنيتي.

كنت مأخوذة بذاكرتي كيف تتجدد؟ كيف تتفتح أمامي عالماً لذيذاً كنت أحيا داخله منفصلة تماماً عن هذا الرجل كلوحة ناطقة في جدار أصم، تلك اللحظات فقط كنت أشعر بقرب روحي من جسدي ليتفقا أخيراً على خيالٍ واحد فقط.

أحياناً لم أكن أجرؤ أن أغمض عينيّ حين يقبّلني.. فقط كي أتذكر مع من أنا.. حتى لا أهمس بذلك الاسم الذي لا أجد سواه يعزف داخلي ألحانه الأبدية ومن لا يحظى سواه بهمسي له.

بمرور الأيام تخلّلت حالة الانفصام العاطفي عندي قناعة ملأتني بخيبة مذاقها أكثر مرارة من أي خيبة، وأنا المتشربة بكل أمزجة الخيبات الفريدة، كل ما أدركته أنني كنت خائنة.. وكرهت هذه المعرفة التي تدنيني من الضياع أكثر فأكثر، أعرف أنني خاطئة..

لكنني عجزت أن أميز من هذا الذي أخونه ومع من أخونه؟

كنت بحاجة سرابية للجلوس مع نفسي كي أحدد مع من أنا ومن أرفض، وأن أجمع شتات أجزائي المتناثرة كزبد البحر على

شواطئ حياة لا أريدها أو أستسيغها..

حاولت مراراً أن أنسى ذلك الرجل الذي تركني بحجة الموت، وهـو الـذي مـا زال يسـكنني، يتنفـس ويأكل من روحي وجسـدي، تمنيت أن يغادرني كي أموت أنا أيضاً أو أعيش.

وهذا الرجل الحنون الذي يشاطره جسدي السكن لا يساعدني على الانحياز لروحي حيث هي، بل إنه يجاذبني هذه الروح بمشاعر الشفقة والندم نحوه أحياناً كثيرة، وأحياناً يغرس في صدري مشاعر الاحتقـار لروحـي العاقـة وكراهيتهـا. تمنيت لو أسـاء لي أو عاملني كما أستحق.. كنت ربما سأجد حينها مبرراً لخيانته الروحية مع زوج آخر.

وذلـك العاتـي الـذي رحل كيف كان مـرور روحه أمام ملائكة الرحمة؛ وقد اختلس روحي معه وتركها معلقة بين السماء والأرض، كيف أستحق الرحمة ولم يرحمني حين فارقته؟

لقـد كنـت علـى يقين قلبيّ أن الإنسـان لا يوصف بالخيانة إلاّ إذا خان نفسه وما يؤمن به أولاً، ولعلني في نظر البعض غير منصفة بحق هذا الرجل الذي تزوجني أرملة لرجل آخر، بل سأكون خائنة له مع ذكريات عشقية لرجل راحل..

ربمـا أكـون فـي نظر البعـض الآخر امرأة أرغمهـا الواقع على خيانة ذكرى رجل أحبته وفصل بينهما ما هو أقوى من الحب..

لكنـي لا أعتقـد أن هنـاك مـا هو أقوى من الحب، وأنا لم أخن أيّاً منهما مع الآخر..

أبداً لم أفعل...

لقد كنت أخون نفسي طوال الوقت..

أخون إيماني بما أريد.. بقناعاتي فقط.

طوال الوقت أستبيح كرامتي أنا بنفسي وأقبل ذلي لنفسي.

كان يجب أن أحترم خيار مشـاعري بالبقاء غيمة تمطر الحب على قبر راحل دفنته داخلي..

كان ينبغي أن أكون أقوى لمرة واحدة في خياراتي..

أنـا هـي التـي قبلت أن تكون مطية للقدر، يحدد وجهة سـيرها حيث شاء بلا رفض أو احتجاج.

أنا الآن سـأروض قدري ذلك الخيل الجامح البري، سـأختار ولأول مرة قدراً حتى وإن كان قدر الرحيل عن الحياة..

لقـد اختـارت روحـي ذلك الراحل وإن تركنـي مؤثراً الصمت كالجبال..

يبدو أن لا لقاء بأهل السماء إلاّ بالموت حتى نرتقي إليهم..

القلوب النظيفة

مثل كل صباح، حين تمر هي يظل هو يراقب جلبابها الأسـود حتى يختفي في المنعطف الأخير للشارع، ويتنهد ثم يقذف بالمكنسة من يده بعنف، ويجلس على الرصيف مطأطئ الرأس في انكسار.

يظل لوقت قصير يمعن التحديق في كومة تراب كان قد جمعها بعناية، وبلا شعور ينتصب واقفاً ويركلها بقوة فتتبعثر في كل مكان وهو يزمجر:

– هذه الكومة الحقيرة أنا... أنا لا شيء سوى تراب.

ثم يعاود جمعها بالمكنسة كأن شيئاً لم يكن.

ذلك الصباح فكر أن يقف قبالتها حين تخرج مسـرعة؛ خشـية أن تتأخر عن جامعتها؛ لكنه خاف أن تخرج برفقة أحد من عائلتها؛ فيستغرب وقوفه بلا مبرر.

وخشـي أكثـر ألاّ تلاحـظ وجـوده أصـلاً، رغـم أنـه موجود فعلاً في هذا الشـارع منذ سـنوات طويلة؛ ربما قبل أن تسـكن هي وعائلتها، وقبل أن يلاحظ هو هذا الكائن الجميل الذي كبر فجأة وترك الخروج حاسر الرأس يصيح في إخوته الصغار ألاّ يبتعدوا عن باب الدار.

هـو هنـا منـذ نعومـة أظفاره، المحشـوة دوماً بالتـراب، يراقب أبنـاء الحـي يخرجـون من بيوتهم الدافئـة، بثيابهم النظيفة، وحقائب المدرسة تزين ظهورهم اليافعة.

أما هو فقد كان يحمل على عاتقه مكنسة القش الكبيرة، والتي ربما أكبر من حجمه هو، وعلى عاتقه أيضاً أسرة كبيرة تنتظر ما يتحصله كل آخر شهر طويل الانتظار.

الآن، وقد أصبح شاباً في مقتبل العمر، يقذف بالمكنسة هذه أمتاراً عدة حين يغضب. لا يدري لماذا ما زال هنا منذ سنوات؛ أمن أجل غادة الصغيرة، حين كانت صغيرة؟ أم من أجل غادة الشابة، التي احتجبت وحجبت معها سعادته وأحلامه السحرية؟

لكنه هنا، وربما يبقى بقية عمره هنا. هو المسؤول عن نظافة هذا الشارع، وإن كانت أخلاق قاطنيه هي التي بحاجة للنظافة الحقيقية. فما زال الجميع يتوارثون كلمة «خادم» ويلقونها في وجهه ليل نهار.

إلاّ غادة الصغيرة؛ كانت تصرخ في وجوه إخوتها حين يضايقون الولد الأسمر إذا وقف يشاطرهم اللعب. كانوا ينعتونه بـ«الخادم القذر»، وكانت تصرخ:

– حرام، هذا إنسان مثلنا!

كبرت غادة، ولم يعد الصوت الجميل يردد: «حرام، هذا إنسان مثلنا». ذلك الصباح، كان يفكر أمام المنزل الذي يضم أفكاره المحرمة، حين برز الجلباب الأسود الذي يحوي غادة. فكر: «ليتني ذلك الجلباب فكلانا أسود»، وابتسم.

توقف كالتمثال حين اتجهت نحوه مباشرة. كانت تحمل كيساً كبيراً بيدها اليمنى، وكتبها في اليد الأخرى، وكانت نظراته تحملها كلها. تردد الصوت القديم:

– أين أضع هذا الكيس يا حسن؟

ارتج لدهشته، لسعادته. إنها تذكر اسمه وتناديه؛ بل إنها تسأله أين تضع كيس القمامة الذي بيدها. تمنى أن يحتضن كيس القمامة، الذي أسرع يلتقطه من يدها، مغمغماً بعبارات لا يدري ما هي:

– هاتي عن يدك يا ست البنات، يدك لا تمسك هذه الأمور. أنا أضعها في مكانها.

شكرته بلطف:

– «تسلم يا حسن»، وانصرفت.

ظل يراقب جلبابها الأسـود حتى اختفت في المنعطف الأخير للشارع، قبل أن يقذف المكنسة من يده، ويحمل الكيس ليضعه في عربة القمامة.

ظـل سـحابة يومـه فرحـاً كونها نطقت اسـمه وتذكرته. أبداً لن يشعر الآن أنه «خادم». إنه حسن، وسيصفع كل من يناديه بغير حسن. إنه إنسان مثل الجميع.

لشهور طويلة، ظل حسن يشعر أنه حسن؛ خاصة وأنه قد أرهب أولاد الحـي، فلـم يعـد أحد يجرؤ أن يناديه بـ «الخادم»، إلى أن أتى اليوم الذي أصبح فيه كل شـيء في وجه حسـن سـيئاً إلى أبعد حد. كان يوم رحيل غادة إلى منزل زوجها.

امتـلأ الحـي بالزينـة والزغاريد وأصوات الأغانـي التي تهنئ العـروس، وامتـلأ قلب حسـن بالفقـد والحزن. وأتى يـوم الزفاف لترحل غادة في موكب جميل إلى شارع بعيد، حيث ستقطن هناك مع زوجها.

كان الجميع يحتفلون إلاّ حسن.

كان يبكـي بصمـتٍ ذلك الخطـو الجميل كل صباح وآثاره في

الشارع الطويل.

كم سيفتقد جلبابها الأسود في المنعطف الأخير للشارع.

كم سيفتقد أن يعامله الآخرون كإنسان مثلهم، كم سيفتقد قلبا حنوناً ونظيفاً.

فـي صبـاح اليـوم التالـي لرحيل غـادة وما تـلاه، كانت أكياس القمامـة منتشـرة فـي كل ركـن من الحي، والأوسـاخ مبعثرة في كل الأرجاء.

فقد ترك حسن هذا الشارع، وانتقل إلى شارع بعيد أكثر نظافة وإنسانية.

المنديل الورقي

الحياةُ ملجأ أيتامٍ كبير.

والقلوب يتامى تجوع لكفٍّ تمسح عنها الحزن.

وهي مكسورة القلب تغرق في اليُتم ولا تفصح.

سـلبها ملجأ الأيتام الكثير، سـرق منها في غياب الوجوه الثقة، وأبدلها الحذر المتوجس كفأر في مصيدة.

إنمـا منحهـا الله قلبـاً يخترقـه النسـيم، فعاثت فيه ريـاح التفرد تمزيقـاً. آثـرت الانطـواء واكتفت أن تعيش مئـات الأرواح الأخاذة، وأن تجـوب الدنيـا في حجرتها قانعـةً بالحذر المترقب كفأر حبيس في قلبها.

ذلك اليوم، كان اليُتم يعتصر ساعاتها.

كانـت تطارد في حقيبتها شـيئاً مـا يغافل أصابعها المرتبكة من الضجر، لتصدمها رائحة منبعثة من ورق ناعم ملفوف كيتيم يحتضر بعيداً عن الأنظار في جيب سري صغير.

هل أتى بها الهواء كي يمازحها، ويرى شـهقة الشـوق الحزين على ملامحها المعذبة بحماقاتها العجيبة، أم تسلل الحنين من باب تركته مواربـاً؛ كي يفاجئها من داخلها لا ينتظر سوى رائحة اخترعها عقلها وأفكارها المتسكعة في أروقة أيام ربما لم تعنِ لغيرها ما عنته لها؟

مـاذا ينتظـر القـدر منها، أن تمرغ أهدابها المبللة بالضعف على

شرفاته المتعالية؟ هل تبكي رياءً، وتعتذر كونها عاندته كثيراً؟

وهـي الراغبـة فـي المقاومـة حتـى آخـر حرفٍ مغمـوس بحبر الدموع والألم.

لقد اقتربت كثيراً من سذاجتها يوماً، وكادت أن تقضي عليها في مواجهة مباغتة في موقف مؤثر. ولكنها حلوة اللسان تلك السذاجة، أوهمتها أنها خلٌّ وفيٌّ، ولن تخذلها أبداً وتوقِعها في ما لا يُنسى، أو تترك شـرخاً في ذاكرتها يمتص كل ذكرياتها كثقب أسـود في ذلك الرأس الملازم للخل الوفيّ.

حكايتها أنها ذات يوم أشـرقت جوار الشـمس كسـحابة عابرة، ولقد مرق في خيال السحاب العابر أن البقاء يدوم، وأنها لن تفيض دموعاً حين تبقى مجرد ذكرى تروي الأرض.

هل يمكنها أن تتجاوز تلك الأيام، أم أن الأيام تجاوزتها عنوة؟

لا يمكنـك وأنـت ذاهب في طريقك خلال هذا الملجأ الكبير، أن تتجاهل حفرةً عميقةً تصادفك مبتسـمة ابتسـامة واسـعة كمثلث برمودا، ثم تبتلعك وتلوكك، ثم تلفظك كلا شيء، بعد أن امتصت رحيق أمنياتك وأحلامك.

لكن هذه الأيام في حكم الأموات، مدفونة في ذاكرتها وتنشط عند أول لمحة تشبهها أو تنفخ فيها الروح.

هل كانت تلك الرائحة المنبعثة من منديل ورقي نفخة روح أم إعلان وفاة لبعض سكينتها المُدّعاة؟

هـل تجـرؤ أن ترميـه خـارج قبـره الصغير خـارج حقيبتها، كي يشعر بمدى اليُتم هو الآخر؟ هل تعرف المناديل الورقية معنى الغربة واليُتم مثلنا؟

لكـن تلـك الرائحة كانت افتراضية فقط، لم تلمسـها حواسـها الغارقـة فـي اليُتـم يوماً. فلماذا تُحمل هذا الخانع ذنباً؟ هو لا يعرف تضاريـس الوجـع؛ لقـد أوقعته أقداره فـي حقيبتها في لحظة ضعفها هي؛ فلماذا ترميه في اليُتم نكاية لالتصاقه برائحة بلا جذور؟

هي لن تلغي ذاكرة منديل ورقي عاش قصة لا يعرفها، واقترب كثيراً من صدرها وشفتيها، وكان لهما ذكريات حميمة.

لكنه يبقى شـاهداً على مجازر الشـوق والحنين، شـاهداً ينطق برائحة كانت ساطوراً يقطع رؤوس الراحة والنسيان.

كان قاتلاً هذا المنديل الورقي الخائن، يتربص بها كلما فتحت حقائبهـا وينقـض متسـللا إلـى رئتيها ويختلط بأنفاسـها، ثم يبعثرها كالوهم.

سيبقى شاهداً على سقطة جنون ولحظة ضعف.

أخرجتـه أناملهـا، تأملتـه كثيـراً. كم يبدو مثيراً للشـفقة، مهترئاً وحزينـاً كقصـة حـب ناقصة الأركان، أو كطفل لفظته رحم الأم ولم يكتمل. كان يبدو متعباً ومنهوك القوى؛ لطالما اعتصرته شفتاها في قبلة مخنوقة.

تأملته كثيراً، إنما لم تجرؤ أن تستنشق أنفاسه.

هل تمسـح به آخر قطرة دمع تبكي يُتمها قبل أن تهديه للريح قبـراً جديـداً، أم تشـفق عليـه من الاحتراق بـكاءً؟ هل تعيده إلى قبر رئتيها؟

ربما لا يرغب في العودة، ربما هو سـعيدٌ بهذا الانعتاق، ربما هو أيضاً كرِه رائحته المختلطة بأنفاسها.

أودعته الريح، وعادت إلى حقيبتها.

الميراث اللعين

لـم يناما إلا فجراً، قضيا الليـل في أحاديث طويلة تمنياها منذ أن تعارفا فـي أروقـة الجامعـة التي ضمَّت حُبَّهمـا العفيفَ – وأيضاً – عيـون عشـرات الفضوليين التي تحصي أنفاس الآخرين كتسـلية وتضييع للوقت..

الطَّرقـات العنيفـة على الباب الخشـبي للشـقة تأتـي كالحلم.. كأنها ضرب الدفوف في الليلة السابقة..

إلاّ أن الحلم أصبح أشدَّ وضوحاً ككابوس يعيشه العروسان.. اسـتيقظا برعب هائل مع الضربات الأشـد عنفاً وتركيزاً في محاولة لكسـر البـاب الخشـبي.. وتحطَّـم البـابُ تحـت ضغـط القبضـات الغاضبة..

خرج عزَّامُ من فراشه على عجل مرتدياً أول شيء صادفه، وهو يحث عروسـه على ارتداء ملابسـها؛ بعد أن تبيّن صوت والدها بين الأصوات الكثيرة التي اندفعت إلى ردهة المنزل، وخرج من حجرة النوم هاتفاً بصوتٍ مخنوقٍ:

– «خير يا عم، ما الذي حصل»؟!.. ما الذي جعلكم تدخلون بهذا العنف والخراب؟!

جذبته يد العم القاسـية من سـترته وهو يصرخ: ما الذي حصل يا قليل الأصل، يا جبان، تضحك على عقول الناس الأصول!.. أين البنت أيها الحقير، وقذف به أمتاراً كمن يتمنى تحطيم عنقه، قبل أن

يندفع إلى حجرة العروس صارخاً:

– قومـي أيتهـا اللعينـة، يـا جالبة العـار لأبيـكِ، قومي ارتدي حجابك ولا تأخذي شيئاً معكِ..

كانت هند تقف في منتصف الحجرة كالمشـلولة لا تعي شـيئاً مـن صـراخ أبيهـا وأصوات أخوتها وهم ينهالـون ضرباً على عزام.. هزَّها والدها بعنفٍ وهو يسأل بصوتٍ خفيضٍ كالفحيح: هل لمسكِ الحقيرُ؟.. هل دخل عليكِ..؟

أشـارت برأسـها نافية كأنها أجرمت، قبل أن يدفعها دفعاً بيديه الغليظتين كي ترتدي حجابها، وسـط سـيل من الشـتائم واللعنات.. وانتهـت مـن ارتداء ملابس الخـروج كأنها حملت جبلاً قاحلاً فوق جسدها، وخرج والدها وهو يشدُّ يدَها خلفه بقسوةٍ شديدةٍ..

حاولـتْ أن تلقـى نظرة على عزام.. ربما تكون الأخيرة.. لكنه كان مرميـاً علـى الأرض وقد صرعـه اعتداء إخوتها.. وخرجت من باب الشقة الخشبي لا ترى طريقها من تدفق دموع الخوف والألم.. لـن تجـرؤ حتـى على السـؤال لماذا كل هذا فـي هذا الجو العاصف من الخوف والألم..

* * *

تحامـل عـزامُ علـى جسـده المنهـك الـذي تلقّـى العديـد من الركلات والضربات الحاقدة، ونهض جالسـاً يفكِّر هل هناك أبشـع من صباحية زفافه هو..؟!

زحـف نحـو سـريره وارتمـى عليه كأنـه يتمنـى أن يغوص في اللاشـعور.. إنـه لا يصـدق أنهـا كانـت هنا وأنها رحلـت هكذا.. لا يصـدِّق أن الأمـس كان يـومَ زفافـه المرتقب منذ سـنوات، وأن ليلة

أمس كانت الأولى والأخيرة والبريئة جداً..

تذكَّر هندَ فطفرت الدموعُ من عينيه.. لقد أحبَّها منذ رآها طالبةً في الجامعة التي يعمل معيداً فيها.. وطوال سنوات دراستها الأربع وهو يحرسها بعينيه وقلبه دون أن يجرؤ على أن يفاتحها أو يدنو منها.. إلى أن شعر أنها ستترك الجامعةَ وتذهب بعيداً، وربَّما تتزوَّج غيره وهو ما زال رهين مخاوفه وخشيته أن لا تقبله أو يقبل به أهلُها..

يومها تجرَّأ على أن يقترب منها في حديثٍ خاصٍّ لأول مرةٍ.. كانت تمرّ كعادتها أمامه وتلتفت نحوه بحياء، ولكم تسعده هذه اللحظات وهو يبادلها النظر بحبٍ بالغٍ.. إلا أنه هذه المرة ناداها بصوتٍ ضعيفٍ من شدة الحرج:

– آنسة هند، إذا سمحت دقيقةً من فضلكِ..

اقتربت هندُ من عزَّام وهي ترتجف من أعماقها، أخيراً سيكلمها وجهاً لوجهٍ، همست بصوتٍ مرتعشٍ:

– أنت تأمر يا أستاذ، خيراً..

تنحنح كثيراً وقد أفلت منه الكلام، وظلَّ واجماً برهةً يحاول ترتيب ما يقوله قبل أن يقول في شرود لا يدري ماذا يقصد:

– هل حدَّدتم أنتِ وزملاؤكِ متى يكون حفل التخرج..

ابتسمت خلف النقاب وهي تقول:

– أعتقد أنهم اتفقوا..

فكّرت أن تشجعه قليلاً؛ فقالت: سنفتقد أيام الجامعة ومَنْ فيها.. وصمتت وكأن الوحي هبط عليه وفتق لسانه فقال هامساً:

– نحن من سنفتقدكم كثيراً، ونتمنى لو تتاح لنا زيارة العائلة إن كان لديكم القبول.. وشخص إليها ببصره مترقباً ردة

فعلها.. ضحكت هندُ بسعادةٍ؛ أخيراً يلمح لرغبته في الارتباط بها، وقالت باسمةً:

– أنتَ على الرحب يا أستاذ عزام.. استأذنته وهي في غاية الارتباك..

تذكر حين ذهب خاطباً مصطحباً بعض الوجهاء والشخصيات المهمة في الجامعة حاملاً بين يديه سمعته النظيفة وأخلاقه العالية وإمكانيات حصاد العمل المتواضعة..

تذكَّر سعادته الغامرة التي كانت تحلق به فوق البشر حين وافق والدها مُرحباً به زوجاً لابنته الغالية، وكيف أنه أصر على استعجال الزفاف في أقرب وقتٍ تسمح به مقدرة العروس وأهلها..

كان يخشى أن يفكر والدها بالسؤال عنه وعن أصله ومَنْ يكون، كان يخشى أن يأتي أحد المتبرعين ناصحاً ومرشداً بعدم الارتباط بأستاذ الجامعة الخلوق والمهذب ولكن «الحلاَّق» أو «المُزَين»..

ولكن يبدو أنه لم ينجُ من أولئك المتبرعين الذين يصرون على تصنيف البشر ذلك التصنيف الملعون – وإن أتى متأخراً في نظرهم – حتى قدموا بهذه الصورة الوحشية كي ينتزعوا زوجته من فراشه وكأنه كائنٌ ناقصٌ أو حقيرٌ..

تذكَّر أن إخوتها أمهلوه يوماً واحداً حتى يرسل ورقة الطلاق وإلا فإن الضرب المبرح أمرٌ رحيمٌ بالنسبة لما سيحدث له.. فكَّر أن ذلك الملعون الذي صنف أناس مجتمعه ذلك التصنيف المتوارث لا يستحق الموت الذي يتوعدونه به..

إنه يستحق أقوى من الموت.. إنه يستحق أن يبقى مخلداً يستقي لعنات الأجيال التي وصمها بوصمة قلة الأصل والدونية،

والحرمان من حقٍ بشريٍّ كفله الله وتصرف به بشر حقراء..

إنه عاجز عن أن يستعيد زوجته.. عاجز عن أن يثبت حقَّه في المساواة ببقية أبناء الأصول.. عاجز عن أن يحمي حتى حياته.. وأجهش في البكاء..

الهاربة

ألقت النظرة الأخيرة على أطفالها الثلاثة. كان النوم قد سلبهم رؤية أمهم تغادر. لم تكن نظرةً فحسب، بل كانت زفرة روحٍ أطلقتها مع سيل الدموع من عينيها.

أغلقت باب الحجرة جيداً على الصغار النائمين. لم تكن لتفكر أبداً في وداعهم، أو مغادرة البيت وهم مستيقظون.

حملت الحقيبة الصغيرة، وأغلقت باب الشـقة التي حوت كل ذكريات عذابها، واحتفظت بثمار قلبها كرهينة.

خطواتها تتعثر في «البالطو» الطويل وفي خيبات العمر الكثيرة، تستفزها درجات السلالم أن تتزن خطواتها المتسارعة نحو الحرية.

حدثت نفسـها: (ما أبعدها عن تمثال الحرية الذي تقصد.. ما أبعدها عن كرامتها التي خسرتها منذ جاءت إلى هذا الوطن).

الوقت مبكراً جداً على خروج امرأة من بيتها وحيدة تتعثر في خطواتها، وتحمل حقيبة هروب صغيرة وثقيلة. النظرات التي رمقها بهـا العمـال النشـطون تـدل على أن الشـارع في هـذا الوقت المبكر خـاص بشـقائهم وحدهم وسـعيهم خلف لقمة العيـش، ويجب ألاّ يفسده منظر امرأة تجرّ «بالطو» مفرط الزينة تتمايل في مشيتها، كأنها تدوس على معاناتهم بشوكة كعبها المرتفع.

تحديقهم يخيفها ويزيد في إرباكها، لكنها أصبحت تفهم عقلية هذا الرجل القبلي الذي لا يعي أن المرأة – أيضاً – بشر، يمكن أن

تضطره الظروف أن يخرج مبكراً وحيداً هروباً من المَحرم.

إنما لديها من الأوراق الخضراء ما تشتري به نظرات الرضا في عيونهم الفقيرة؛ لذا أوقفت أول تاكسي لاح لها في الشارع الخالي، وبعد تفاوض قصير انطلق بها التاكسي إلى حيث تستقل سيارة أخرى تحملها إلى الحرية.

* * *

وضع فيصل المفتاح في ثقب الباب، يعرف أن زوجة شقيقه لن تجرؤ على وضع مفتاحها في الجانب الآخر للباب؛ فقد ألزمها أن ترفع المفتاح – كل ليلة – قبل أن تنام هي وصغارها، ولم تخالف له أمراً من يومها.

يحب مباغتتها في تلك الملابس الفاضحة حين يأتي صباحاً كي يشتري لها حاجيات البيت، يشعره ذلك بالمتعة وهو يطالع جسداً معروضاً أمام عينيه بلا تحفظ.

فقد كانت لا تبالي كثيراً بنظراته التي تلتهمها في كل مرة يدخل المنزل خلسةً كاللص، ورغم تمتعه بالنظر إلا أنه كان – أيضاً – يشعر بالقرف، ليس من نفسه الحقيرة، بل من زوجة أخيه، تلك التي تربت في أمريكا، والتي لا تعرف من وجهة نظره الحياء أو الخجل داخل بيتها وحجرة نومها، فتتحشم من غزوات عينيه كلما أتى بغتةً كرجل شريف يقصد بيت أخيه المغترب ليتفقد أحوال أبنائه.

فتح الباب بهدوءٍ كعادته، تروقه الدهشة في عينيها العسليتين، ونظرة الامتعاض التي تبتلعها خوفاً من سلاطة لسانه، لكنه فوجئ بالثلاثة الصغار وقد تكوّمت أجسادهم الغضة في ركن

الصالة، ونظراتهم تمتلئ دموعاً؛ فقد بكوا كثيراً حين استيقظوا

ولم يجدوا أمهم في كل حجرات البيت، والتي ما اعتادت أن تغادرها أبداً منذ عرفوها. لم يتعودوا على الاستيقاظ دون أن

يحظوا بقبلات الصباح وهي تقول لهم بالإنجليزية: «good morning»، وحين طالعهم وجه عمهم البغيض إلى قلوبهم هرعوا إليه وهم يتباكون في جزع كبير:

- أين أمي يا عم فيصل؟
- ما فعلت بأمي يا عم؟

بدا فيصل مصدوماً أكثر منهم، أين ستذهب؟

إنها لم تخرج البتة، سوى تلك المرة التي حصلت فيها على ما تستحق بعد شجار عنيف بينهما، تخللته هي بسباب متشنج بلغتها اللعينة والتي لم يكن يفهمها، لكنه يعرف أنها شتمته كثيراً.

لقد كان شجارهما يصل إلى الطوابق السفلى للبناية، لكنه لم يكن يهتم بنظرات الاستياء التي تقابله على سلالم البناية من جيران زوجة أخيه، كان يجب عليه أن يربيها من جديد فهي لم تتلق أي تربية في أمريكا حيث عاشت جل ّعمرها.

صرخ في وجوه الأولاد أن يسكتوا ويخبروه أين أمهم الساقطة؟ أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟ ومتى؟

لكن الأطفال ازدادوا بكاءً ومناداة لأمهم. لم يكن أمامه إلاّ أن يأخذهم إلى بيت جدتهم حتى يعرف كيف يتصرف إزاء هذه الفضيحة.

حتى الظهر، كان يأمل أن تظهر؛ لذا بقي في الشقة ينتظر بعد أن تخلص من الصغار بتوصيلهم إلى منزل والدته.

كان يغرق في تخيل كيف سيعاقبها هذه المرة؟ وكان ينتفخ

كديك يستعد للصياح في وجه المرأة التي لم تعد حتى حل المساء. حينهـا فقـط اتصـل بـكل إخوته؛ كي يبحثوا عنها سـراً عند الأقارب حتى لا يفضحوا ويصبحوا مضغة الأفواه.

* * *

في الطريق إلى العاصمة صنعاء مرت حياتها كمناظر متسارعة مـن نافـذة السـيارة، تتذكـر وصولهـا إلى اليمن لأول مرة قبل تسـع سنوات.

لقد جاءت بعد اتفاق بين والدها وابن عم له في الأسـرة؛ بأن تتزوج ابنه ومن ثم تسافر معه إلى أمريكا وتمنحه الجنسية الأمريكية التي تحملها، وهناك يعمل بجد كي يسدد ثمنها إلى والدها بالدولار الأمريكي.

وحيـن حصـل الزوج المتفاني على الجنسـية الأمريكية أصبح – فجأة – شـخصاً غير راضٍ عن سـلوك زوجته المنفتح، والتي أبداً لم يرقه سفورها وقلة حيائها؛ لذا أصر على أن تعود إلى اليمن كي تربي أبناءه المقبلين تربية يمنية محافظة ومحترمة.

ما إن وصلا أرض اليمن حتى أصبح شـخصاً مختلفاً، ينهرها بقسـوة ويمعن في إسـماعها كلاماً فظّاً عن سـلوكياتها السيئة، بل إنه كثيراً ما ضربها بعد كل نقاش كانا يخوضانه، فتصر هي على العودة إلى وطنها أمريكا.

كان يضربها بقسوة تدهشها، ولم تكن تعي مدى جرمه في حقها إلاّ حين تطالعها وجوه جاراتها في استياء من معاملة زوجها، كانت تظن أن كل اليمنيين يقدمون على ضرب نسائهم حال العصيان؛ لذا لم تكن تعصي له أمراً.

تخـاف مـن مجرد الرفض، وتخاف من مجرد الشـكوى لأبيها أو أمها. ومع إنجابها المتسـارع في كل زيارة يعود زوجها فيها إلى اليمن كان خوفها يتضاعف ويزداد، مع عجزها

عـن فعـل أي شـيء خصوصـاً وقد أخفـى كل أوراقها الثبوتية وجواز سفرها، أصبحت حبيسة الدار تلتقط أنفاسها في حال سفره كـي تحـاول أن تتفهـم وضعها أو تخلق لها عالماً جديداً فيه أطفالها الذي تحب.

حيـن وصـل بهـا التفكيـر إلـى أطفالهـا فاضـت دموعها وهي تتخيلهم يسـتيقظون دون (الماما) وقبلاتها، لكنها لن تتركهم لذلك الكائـن الـذي يدعـى «فيصـل» كي يمـارس عليهم عُقَده وشـذوذه، ستنتزعهم رغم أنف الجميع، فقط حين تعود إلى وطنها الذي يحترم إنسانيتها.

لقـد تحملـت كثيـراً قسـوة زوجها وظلمه وجبروتـه، لكنها لن تتحمل صفعات فيصل البغيض الذي يمتهن كرامتها بعينيه ونظراته الفاضحة، وأخيراً يصفعها أمام صغارها ناعتاً إيّاها بقليلة الحياء التي لم تتربَّ جيداً، كان يتوعدها بتربية جديدة على يديه.

يجـب عليهـا أن تهـرب من ذلك السـجن البغيـض، وأن تصل إلى السـفارة الأمريكية، وهناك سـتثبت هويتها وتتصل بأهلها بعيداً عـن الخـوف مـن العقـاب. سـتصل أمريـكا؛ حيث تجد مـن يحترم إنسـانيتها، ويحرص على سـلامتها، وهناك ستطالب بانتزاع أولادها الثلاثة، وستحرص على أن تربيهم هناك على احترام آدميتهم أولاً..

وقفت السيارة فجأة، والتفت السائق نحوها باسماً وهو يقول:

– وصلنا السفارة الأمريكية يا أختي، هاتي الأجرة..

العائدون من النسيان

وهـي واقفـةً تـُسـند ظهرهـا المُتعَـب إلى الجـدار كأنها تطلب مؤازرتـه خلفهـا، نظراتهـا المحدقة إلى صور الأطفال الثلاثة عاجزة عن التعبير.

أطفـال جـلال كانـوا رائعيـن يسـتحقون تلـك النظـرة الحانيـة والابتسامة المتألمة.

كانت مشدوهة..

لكـن عقلهـا يعمـل بفعاليـة قويـة، كأنمـا رؤية الصـور أيقظت حواسـها المتجمـدة وأخذتهـا الذكريـات إلـى الماضـي البعيد، إلى سنوات طويلة لم تعد تذكر عددها، أو تتذكر كيف مرت وانقضت.

تتذكر سلمى، تلك الفتاة التي كانت مثل كل الفتيات في سنّها تحلم بالشـاب الوسـيم الذي سـيأتي ممتطياً فرس الزواج ويخطفها بعقد الارتباط الأبدي والساحر، محققاً أحلامها في حياة كلها حب وسعادة، تحلم بخيال يدعو إلى الشفقة أحياناً.

تخشى كثيراً أن يتأخر زواجها كبعض الفتيات حولها، فتوصم بوصمة العنوسـة القاتمة والمخيفة، إنها ترغب في الاسـتمتاع بفترة شـبابها كاملـة، وأن تنجـب الأطفال وما زالت نسـبة الكالسـيوم في عظامهـا مرتفعـةً جداً، تسـمح لها بالتحرك فـي نزه على طول البلاد وعرضها.

هـي ترغـب أن تتشـبع مـن كل متـع الحياة فلا تبتئـس إذا أتتها

الشيخوخة ثم الموت فترحل وفي قلبها حسرة خفية.. وكان لها ما تمنت..

أتى الشاب الوسيم خاطباً، محمّلاً بكل ما تتمنى، طلعةٍ تخطف أنفاسها، وشخصيةٍ متوازنةٍ واعيةٍ تتفهم عقليّة المرأة المتقلبة المزاجية، إضافةً إلى غنىً يحقق لها معيشةً كريمةً تتمناها كل فتاةٍ في سنّها، وقلبٍ عاشق يهيم في سحرها وجمالها..

تداعت العائلة والأهل والأقارب والأحياء المجاورة والتي تليها يشاركون في عرس سلمى وجلال الخيالي.

فهذا الشاب والده مغترب في الولايات المتحدة الأمريكية، وثراؤه الفاحش سمح له بإقامة عرس فخم كتلك الأعراس التي اشتهر بها مغتربو أمريكا إذ يقيمونها لياليَ وأياماً، في فرح وصخب تسمح لكل الفقراء بلعنهم سراً وعلانيةً على البذخ والترف والتفاخر بالأوراق الخضراء الممزوجة بالمهانة في الغربة أو بالحرام في مأكل ومشرب النصارى..

لكن سلمى كانت في وادٍ آخر.. كانت تتيه سعادةً وجمالاً بكونها عروساً، وكلما لمحت نظرات الحسد في عيون القريبات والصديقات أيقنت أن مفتاح الجنة بين يديها وأنها وصلت إلى أروع أحلام اليقظة التي كانت تتسلى بها في أوقات العمل في مطبخ منزلهم، اليوم فقط ستلج عالم الحب الذهبي لتُقضِّيَ أيام عمرها برفقة ذلك الشاب الوسيم في راحة ودعة.

أيام العرس الأولى بدت ساحرةً كما تخيلتها تماماً، زوجٌ محب ومتفهم، ورحلة شهر عسل ولا أجمل قضياها معاً في زيارة أنحاء اليمن التي لا يعرفانها.وحين العودة إلى منزل الأهل كانت

حقائب السفر مضاعفة، تمتلئُ بكل جميل وفاتن وعشرات الأفلام والألبومات من صور الذكريات التي لا تنسى..

الآن بدأت الحياة الواقعية لسلمى كزوجة انتمت إلى عائلة كبيرة، فيها الأجداد والعمّات وأخوات الزوج ونساء إخوته الكبار والأطفال الذين لم تعرف عددهم الكلي إلاّ بعد أسابيع من الزواج..

الآن تعرف أن الوقت الذيتقضيه مع زوجها سيقلّ، وأن عالمهما الجميل سيكون داخل جدران غرفتهما فقط، فلا مجال لأن ترتدي ما تشاء من الملابس غير المحتشمة في حضرة هذا العدد من الإخوة والذاهبين والعائدين في بيت أشبه بفندق عائلي، كما أن العمل في المطبخ مقسّم بين نساء البيت بدقّة ونظام تديره والدة جلال التي تشبه إلى حد كبير قائد كتيبة عسكرية معدة لاقتحام شيء ما.

إلاّ أن ذلك الحب العاصف الذي سكن قلبها البكر لزوجها جعلها تحاول جاهدةً إرضاء جميع الأطراف في المنزل وكسب حبهم وودهم، حتى درج وصفها بحمامة البيت لرقة طبعها وإفراطها في العاطفة إزاء كل شيء يحدث حولها.

وطوال اليوم تنتظر قدوم المساء حين ينتهي ضجيج المنزل الكبير ودوامه المتأخر في الزحام، حتى تخلد إلى حجرتها منتظرةً قدوم جلال من مكان عمله، مع إخوته كتاجر جُملة يبقيه عمله ذاك في المحل حتى ساعة متأخرة من الليل..

كل ليلة تبدو كعروس جديدة.. تنثر الفل على الفراش وتملأ الحجرة بالألحان والبخور في طقس مسائي يهفو إليه جلال وينتظره بفارغ الصبر..

لشهور طويلة مرّت كانت سلمى تحشد من تعبها طوال النهار

جيوش الراحة والسعادة طوال المساء حتى أصبح يضرب بعلاقتها وجلال المثل، فكان بعض إخوة جلال يتندر على زوجته إذا أفرطت في طلباتها ودلالها: أن اذهبي لست سلمى لجلال..

ولا بد لكل سعادة في هذه الدنيا من منغصات تزداد تدريجياً حتى تخنق هذه السعادة إذا لم توأد تلك المنغصات في بدايتها..

فوالدة جلال كقائد عسكري صلب يرغب في زيادة أفراد المعسكر خاصته، فبدأت الأم الرؤوم في طرح الأسئلة البريئة لولدها وزوجته الحالمة حول مشكلات الإنجاب، ولماذا تأخر حدوث علامات الحمل من دوار وقيء وما إلى ذلك.

سلمى تضحك وهي تتخيل منظرها ببطن منتفخ كزوجة أخ جلال الحامل في شهرها الأخير.. إلاّ أن ضحكتها لم تعجب أم جلال التي قالت لها في حزم:

- لماذا تضحكين يا ابنتي، لقد مضى على زواجكما تسعة أشهر.. كان الأولى أن تكوني أماً، أخبريني هل دورتك الشهرية منتظمة..؟

أغرقت سلمى في الضحك.. لم يسألها أحدٌ من قبل عن صحة انتظام دورتها الشهرية ولا حتى جلال أو أمها من قبل.. إلاّ أن أم جلال أصدرت في شأنها قراراً عسكرياً حازماً وهو التوجه صباحاً لطبيبة العائلة كلها كي ترى ما الخطب.. كل هذا وجلال صامت، لا يشارك برأي.. يعرف أن هذه الأمور تقع ضمن صلاحيات الأم واختصاصها في العائلة وهو لن يختلف عن إخوته في الانصياع والإذعان.

أما سلمى فكانت حمامة سلام حقاً.. فحين خرجت الوالدة

من الحجرة؛ ضحكت وهي تقول مازحة:

– لماذا أمك قلقة بشأن صلاحيتي وليس بشأنكِ أنت..؟

ضحك جلال براحة، خشي أنّ تدخل والدته يثير حفيظة سلمى كما فعل عند زوجة أخيه مرة، حين قررت التوقف عن الإنجاب فمنعتها الوالدة بحزم.. لكن سلماه أرقُّ النساء وأطيبهنّ قلباً.

* * *

وفي اليوم التالي حين عادت سلمى ووالدة جلال من عيادة الطبيبة، دخلت الوالدة حجرتهما زائرة وهي مسرورة بسلامة سلمى وصحتها وأهليتها الإنجابية الممتازة، لتخاطب ولدها بحنان:

– أنت تعرف يا جلال أنه ينبغي عليك السفر والدخول عند والدك أمريكا، آن الأوان يا ولدي أن يرتاح أبوك من غربته الطويلة وأن تحل أنت بدلاً منه.. لذا يجب أن تنجب أطفالاً يسلونني في غيبتك.. بوركت يا حبيبي..

– تصبحان على خير.

حين استدار جلال نحو سلمى معانقاً بلهفة أدهشه تصلّب جسدها بين ذراعيه.. وعندما نظر في عينيها أخافه امتقاع لونهما، وارتجاف شفتها السفلى كأنها تكتم البكاء..

فهمس قلقاً: سلمى حبيبتي، ما بك..؟

همست ملتاعة: أمك يا جلال عمَّ تتحدث؟ إنها تقول أنك ستسافر إلى أمريكا.. أتتركني وحيدة يا جلال وتغيب كما غاب أبوك عن أمك؟!.. بربك قل لي أن هذا الكلام لن يحدث.. قل يا جلال أرجوك..

وانخرطت في البكاء في حرقة.. ضمّها جلال إلى صدره بقوة..

لـم تبـكِ أمامـه هكذا من قبل سـوى ليلة الزفـاف؛ عندما خافت من الألم المنتظر.. أبداً لم تبكِ سلمى حزناً أو خوفاً منذ ليلة زفافهما..

ظل يربت على ظهرها عاجزاً عن أن ينفي أو أن يشرح، أضحى مسـتقبلهما غامضـاً، لقـد أدرك ذلـك منذ أخبرتـه والدته عن نية أبيه العودة إلى اليمن، بعد أن عجز عن تجنيس أحد أولاده الأربعة، كما عجز أن يجنس نفسه أو حتى أن يحصل على «السدسن»..

إن دخول جلال إلى أمريكا زيارةً يعني اعتقاله على أرضها وإن كان حراً؛ فهو لا يستطيع السفر بحرية ذهاباً وإياباً.. تماماً كما حدث لأبيه فقد سافر إلى الغربة حين كان جلال في العاشرة.. والآن جلال في الرابعة والعشرين بالكاد يتعرف على أبيه في الصور..

قضت ليلة بائسة، مثّلت مقدمةً حيّةً لما ينتظر سلمى من الحزن والبكاء والسهر..

لم تنم ليلتها.. ظلت الكوابيس تتراءى لها كأنها حقيقة.. رأت نفسـها امـرأةً عجـوزاً غادرها جمالها وشـبابها تنتظـر حبيبها الغائب جـلالاً، تسـتقبله فـي مكان مقفر وحيدة حزينـة.. وإذا به يظهر.. إنه جلال.. ما يزال كما تركها قبل سنوات طويلة شاباً يخطف أنفاسها بوسامته.. أما هي فعجوز حطمتها الغربة وسنيُّ الانتظار، واستفاقت مـن نومهـا فزعـة وهـي تهتف باسـم زوجها الـذي كان يغط في نوم عميق.. نظرت إليه بحنوٍ حزين، وهمست وهي تلتصق به:

«هل سـيأتي اليوم الذي أفتقدك فيه وأتمنى أن تكون بقربي».. بكت بصمت خشية أن تيقظ هذا النائم الذي تحب..

* * *

فـي الأيـام التاليـة لهذه الحادثة حاول الزوجـان ألاّ يتحدثا في

أمور قد تعكر صفو حياتهما بحدثٍ قد لا يأتي أو قد يتأخر كثيراً.. إلاّ أن مرح سلمى الزائد قد خف كثيراً في حين ازداد تعلقها بجلال أكثر وأكثر؛ فتفانت في إسعاده في ما يشبه ردة فعل لخوف طغى على قلبها أنه سيتركها يوماً ما وحيدة تنهش الغربة فؤادها.

وأخيراً أتى الخبر الذي أنساها بعض مخاوفها، وجعلها تهتم بمرحلة الحمل وما فيها من تجربة فريدة لمعايشة كائن طفيليٍّ يسكن داخلها ويمتص غذاءها، وينمو على حساب جسدها وراحتها، ومع كل هذا فهي تحبه وتنتظر وصوله بشوق كي تتعرف إليه.

وتبدأ بتخيل ملامحه.. لون عينيه وشعره، وحتى اتساع عينيه أو ضيقهما، ومن سيشبه؟ هل سيشبه جلالاً أم سيشبه سلمى؟

مرّت شهور الحمل سريعة.. كانت سلمى حاملاً بطفل جلال، وجلال يحملهما معاً في قلبه المحب الحنون.. يسعى جاهداً أن يخفف عنها تعب وإرهاق الحمل.

وجاء اليوم الموعود والمقلق، فكل خبرات سلمى في الولادة لا تتعدى صراخ النساء من قريباتها أثناء الولادة، وبروز أعينهن من محاجرها بما يوحي شدة المعاناة والألم..

إنما ليس من سمع كمن رأى، وهذا ما رأته سلمى بعينيها وأحسته بكل ذرة في جسدها وهي تتفتت ألماً في حجرة الولادة، وتستغيث بكل الأحياء الموجودين على سطح الأرض، ثم تتذكر أن الله أولى باللجوء إليه، فتصيح: يا الله.. وتغيب من شدة الألم.. ثم تفيق لتنادي جلال كي يساعدها، وهو الذي يتلوّى ألماً وإشفاقاً من أجلها خارج الحجرة..

استمرت الولادة فترةً طويلةً وكأن الحياة لا تبزغ إلاّ من رحم

الموت، الموت الذي عانق سلمى في آخر رمق وأطلقها من جديد؛ كي تمتع عينيها برؤية كائن رخو يبكي لبكائها..

أخيراً – كما في المسلسلات التلفزيونية – سمع صوت الطفل يبكي صارخاً غاضباً من الانعتاق من رحم الأم الضيّق إلى دنيا أضيق منه، ليقفز جلال صارخاً:

– أخيراً ولدنا معاً يا سلمى..

احتشدت العائلة، ككل مناسبة فيها الكثير من الطعام والبذخ والترفيه، وكان «سبوع» ابن جلال وسلمى جميلاً كجمال الطفل الذي كانت له الحظوة في قلب الجدة؛ فلم تبخل عليه بشيء..

مع الأيام كبرت فرحة سلمى بوجود هذا الصغير الذي يبقيها ساهرةً طوال الليل ويقلق جلالاً في رقدته.. وكل يوم تشعر أن حياتها الجميلة باتت مكتملة.. وكأنما يأتي بعد الكمال النقصان..

حدث ما كانت تخشاه.. أصدر والد جلال أمره الحاسم بسفر جلال.. وكأنما أطلق رصاصة العذاب على قلب سلمى التي أصبحت فيما يشبه الغيبوبة، والإعداد لسفر زوجها قائم على قدم وساق..

وأتى اليوم المنكود.. الجميع يبكي في المنزل الكبير حتى الرضيع الجديد كان يشارك الجميع الوداع الحزين..

والدة جلال أكثر الناس دموعاً وحزناً؛ حتى أن سلمى تساءلت في نفسها: فلماذا ترسله بعيداً إذن؟ أينبغي أن تكون هي مثلها؛ امرأة بلا روح؟ غادرها زوجها وهي في أوج شبابها، ليعود وقد غادرتها ملاحة الشباب، وانمحى من خيالها معنى المشاركة..

تعـودت والـدة جـلال علـى وحدتهـا، وتوليها أمورهـا وأمور أطفالهـا بنفسـها، لكن سـلمى لـم تحيا مع جلال بعـدُ عمراً كالذي عاشـته والدتـه مـع زوجها، أو أنجبـت ثمانيةً من الأطفال كبروا بين يديها ويديه..

ليس من العدل أن يحرموها زوجها أو أن يحرموه رؤية طفلهما يكبر أمام عينيه.. حين وصلت بتفكيرها إلى هذا الحد غامت عيناها بالدموع وشاركت الجميع نواحهم..

حقائب السـفر التي خرجت من حجرة سـلمى نزعت الدفء خلفهـا، ونزعـت بقيـة أمـل لدى سـلمى فـي أن يبقى جـلال، أو أن تحدث معجزة تبقيه معها..

بدا جلال في حالة يرثى لها، يحاول جاهداً أن يتماسـك أمام سـلمى حتى لا ينفجر باكياً.. ضمّها لآخر مرة ولم تتشـبث به.. من شدة الضعف عاجزةً حتى على الوقوف..

وخرج جلال مسرعاً يُقبّل كل من يصادفه من الأبناء والبنات، ويحتضـن والدتـه ويُقبّـل رأسـها الباكـي قبل أن ينـزل الدرج حيث إخوتـه بانتظـاره لكـي يوصلوه إلى العاصمـة ومنها إلى المطار.. ثم يسافر هو إلى البعيد..

* * *

الأيام التي تلت سفر جلال غير محسوبة من عمر سلمى؛ فلم تكن ضمن الأحياء على وجه الأرض أو حتى الأموات تحتها.

هي في حالة انعدامٍ للاتزان، مشتتة التفكير، فاقدة الإحساس.. أختهـا المقربـة جـاءت كـي تقضي معها لياليهـا الأولى كي لا تكون وحيـدة.. وأهـل المنـزل الكبيـر لم يتركوها لحظـة واحدة، بل كانوا

يملؤون المكان بصخب جميل، في زعمهم أنه يخفف عنها وحشة الفراق..

لكن سلمى لم تكن تدرك من كل هذا شيء.. انحصر تفكيرها في كون جلال أصبح بعيداً جداً، وأن هذا البعد غير محدد بزمن.. وأنها الآن وحيدة.. وحيدة..

الشفقة الشديدة التي غمرتها بها أم جلال كانت نابعةً من تجربة مريرة، فكانت تدخل عليها حجرتها تحدثها عن الأيام الأولى لها بعد فراق والد جلال، وكيف أنها كانت قويةً تنتظرها مسؤولية تربية الأولاد والبنات تربيةً صالحةً فيما الوالد يبحث عن الرزق، ويوفر لها دخلاً يمكّنها من تربيتهم وتعليمهم..

تتحدث وكأن سلمى تسمعها وتتفهم ما تقول، وحين تنتهي من سرد حكاياتها تُقبل الجبين المنكس لسلمى وتخرج من الغرفة الحزينة داعيةً للفتاة بكل خير وكثير الصبر على الفراق المرير..

في أول اتصالٍ لجلال لم يتحدثا.. كانت المكالمة عبارةً عن شهيق وبكاء شديدين، حتى صرخت عليها والدة جلال ألاّ تشق على ابنها فلديه ما يكفي من التعب والمعاناة..

وصدر الأمر بالمباعدة بين الاتصالات حتى يتمكن جلال من التأقلم على حياته الجديدة، وتتمكن سلمى من التعود على فكرة بعده عنها.. وأصبح الاتصال أسبوعياً يغلب عليه الصمت الحزين..

حتى عندما وصل والد جلال وبدا مرهقاً وطاعناً في السنّ يتمنى أن يقضي أيامه المتبقية بين أبنائه وأحفاده؛ لم تشعر سلمى نحوه بالشفقة، ليس لأنه حرمها زوجها، بل لأنه حرم والدة جلال

منه سنوات طويلة، وكانت هناك بدائل للرزق اللعين هذا..

مرت الشهور طويلةً مملة، تتنقل فيها سلمى بين منزل أهلها ومنزل أهل زوجها بلا هدف أو طعم للحياة.. تشارك في مناسبات العائلة بلا حماسة أو سعادة، تخشى – فقط – سخرية النساء من حالها وقد تعودن على غربة أزواجهن سنوات طويلة، ومع ذلك يمارسن حياتهن بصبر وانتظار..

وحده محمد الصغير يسلّي أيامها ولياليها الكالحة، وهي تراه يكبر أمام عينيها يوماً بعد يوم، فتحزن أن جلالاً لا يراه إلاّ صوراً أو أفلام فيديو، لا يلمس جسده الصغير الدافئ

والرطب ولا يُقبل وجنتيه المكتنزة، ولا يحمله بين ذراعيه فيرى كم كبر وكم زاد وزنه.. لقد أوشك محمد أن يكمل عامه الأول، وجلال لم يره وهو يحاول الوقوف أو الحبو أو الجلوس..

حتى اتصالات جلال الهاتفية أصبحت شحيحة؛ يتحجج بكثرة أعماله وإرهاقها له..

لم يعد ينشج باكياً لأنه يفتقدها، ويفتقد حياتهما معاً.. أصبح يتململ من بكائها كلما حاول الحديث معها، حتى أنه صرخ فيها آخر مرة:

– أرجوك يا سلمى أرغب أن أسمع كلمةً حانيةً بعد يومٍ طويل ومرهق وليس البكاء والعتاب.. أنا لا ألعب هنا.. أنا أتعب من أجلك ومن أجل ابننا بالدرجة الأولى..

من يومها لم تعد سلمى تبكي إذا اتصل هاتفياً، ولكنها تبكي عقب الاتصال كتفريغ لشحنة حزن ويأس..

وحين يُقال مرت أعوامٌ على سفره فذلك إجحاف في حق

الانتظار، وما يبليه من بلاء في قلوب المنتظرين من عذاب واكتئاب.. ولـم تكـن سـلمى في أبشـع خيالاتها عن الفراق تتخيـل حالها بعد سنوات ثلاث من رحيل زوجها.. تنتظر وتنتظر.. ولكن ماذا تنتظر؟ إنها تنتظر المزيد من الانتظار والصبر، مع التزامها الصمت؛ حتى لا تسخر منها النساء من حولها..

لجـأت للرسـائل تبعثهـا إليـه يومياً تصف حالهـا، وكيف يبدو محمـد وهـو الرجـل الصغير الذي ينـادي جده بـ بابا.. هل تقول له: أنهـا تحتاجـه زوجـاً وحبيباً؟ أم والداً لصبـيٍّ لا يعرف أباه؟ أم رفيقاً لها وصديقاً يشاركها همومها الصغيرة والكبيرة؟

مـاذا تقـول لـه؟!.. هل تقول له: أنها شـابّة صغيـرة بحاجة إلى قربـه منهـا؟ أم أنهـا تفتقـده كل يـومٍ أكثر من سـابقه؟ هـل تخبره أن لياليها باردة؟ وأيامها جافة؟ ماذا تقول؟ لا يحرجها أو يثير سـخرية الناس حولها..

لليالٍ طويلة تناجيه كأنه في الحجرة نفسـها، تناجيه همسـاً كي لا توقظ الصغير النائم بجوارها:

- آه يا جلال، أنا الآن عاجزة أن أخبرك؛ كم أفتقدك.. محاطة بأشواقي إليك.. حبيسة تفكيري بك طوال الوقت.. الآن – فقط – أتساءل:
- هل يمكنني أن أخلف ورائي واحة قلبي الدافئة والشحيحة كثيـراً بعواطفهـا؟ هـل يمكنني أن أنسـحب بأقل الخسـائر وأعظمها.. قلب معلق بالسراب؟

هل أستطيع أن أدير ظهري لحلم عذب راودني ذات يوم ومنح لحياتي السـعادة، لماذا اختار قلبي هذا الطريق؟ لماذا يقبل كل هذا

الوجـع؟ لمـاذا اختـار السـراب؟ متـى تعود – يا حبيبـي – كي نحيا كباقي الناس؟

لكنها تعرف أنها ليسـت الوحيدة، فهناك نسـاء غيرها كثيرات يعشن هذا الوضع بصمت وصبر.. يذهب أزواجهن إلى غربة قد لا يعودون منها مطلقاً.. كثيرات هن نسـاء اليمن ممن لا يجرؤن على الإفصاح عن معاناتهن من الغربة الطويلة.. بسبب الحياء والحرج..

ذات صبـاح لا يختلـف عـن عشـرات الصباحـات.. نادتهـا أم جـلال لتـزف لهـا خبراً نزل عليها كجبل من الجليد سـحقها بقوته.. ونقلها إلى الصقيع وحيدة تحاول أن تفهم..

جلال يقترح أن يتزوج من أجنبية كي يمتلك الجنسية الأمريكية، ويكـون بمقـدوره السـفر خـارج أمريكا والعودة وقت ما يشـاء.. لم يعلق في ذاكرتها سوى كلمة «يتزوج»..

انهالـت العمّـة ونسـاء أبنائها على رأس سـلمى توعيـةً وتزكيةً وإقناعـاً بـأن ذلـك أفضل الحلـول كي يتمكن من العـودة في أقرب وقت، ولكي لا تسـتمر غربته سـنوات طويلة.. كان الإلحاح عليها قويـاً، فقـد اشـترط جـلال موافقتهـا هي، وأن يسـمع ذلـك بأذنيه.. وكانت سلمى كالغريق حين يتعلق بالقشة التي قصمت ظهر البعير..

هو لن يجد في تلك النصرانية شـيئاً يسـتحق التضحية بسـلمى الطيبـة والحنـون.. هكـذا أقنعتهـا والـدة جـلال.. أن تلـك المـرأة النصرانية لا تسـاوي شـيئاً أمام جمالها وأخلاقها الرفيعة، وهي بنت بلده وتعرف ما يرضيه في المرأة..

وانتزع جلال الموافقة بعد أن حادث سلمى على الهاتف ساعةً أو أكثر مانحاً العهود أنها هي زوجة الدنيا والآخرة، وأنها ملكة قلبه

المتوجة ولن تملأ هذا القلب أخرى سواها..

زواج جلال بمثابة تجديدٍ لعهود الانتظار الطويل وتوالي الأعوام في أعذار كثيرة، ولكثرتها لم تعد سلمى تبالي بها، أو تتذكرها، أو تفهم تفاصيلها.. كل ما تفهمه سلمى أنها تعودت الانتظار حتى أدركت أنه أصبح جزءاً من حياتها، ولم تعد سلمى تنتظر شيئاً معيّناً..

هل تنتظر جلالاً الزوج الغائب الذي لم تعد تتخيل عودته؟ أم تنتظر جلالاً الحبيب البعيد الذي أصبح له حبيبة أخرى؟ أم تنتظر جلالاً والد طفلها الذي أصبح يافعاً يقوم بدور الأب في حياتها؛ فيغار إن رآها أحدٌ حاسرة الرأس، ويرافقها في حِلّها وترحالها كالحارس الأمين الذي يخشى على نعجته من الذئاب..

خطر على بالها في لحظة عجز خاطفة أن تتنصل من كل هذا وتطلب حريتها وتبدأ حياة جديدة كما فعل جلال، لكنها خافت على ثمرة قلبها محمد أن يُنزع منها حينها إذا هي فعلت ذلك، وخافت أكثر من سخرية النساء حولها؛ إذ لم يعد في العمر ما يكفي للانتظار..

لكن قلبها شاب في العطاء، وشاب في انتظار الحبيب، وسيأتي هو ككل شيء جميل متأخراً.. ومستحيلاً..

أما عن جلال فقد تناهى إلى سمعها أنه قد رزق طفلاً أو طفلين من زوجته الأجنبية.. إنها تسمعهم يتهامسون خُلسةً مراعاةً لشعورها.. ولكن الطفلة الصغيرة ابنة عديلها أخبرت محمداً ابن عمها جلال أنها رأت صورةً لإخوته لدى جدتها مخبأة في خزانتها الخاصة بعيداً عن الأنظار كي لا تراها العمّة سلمى فتحزن..

لكن العمّة سلمى لم تعد تحزن كثيراً.. لقد تجمدت حواسها لفرط الانتظار، فالانتظار – أحياناً – يبلد المشاعر ويقتلها.. لقد

أصبحت سلمى كالعشرات مثلها تقتات الكلام في الذكريات، وتضحك مِلأ شدقيها على كل فتاة جديدة وافدة إلى عالم الحرمان والانتظار تبكي فراق الزوج والحبيب كأنها أول من فارقت حبيباً وآخر من فارقت..

شيء واحد – فقط – تمنته سلمى بمرور السنوات بعد زواج جلال، الذي كان رحيلاً آخر أشد قسوةً من الأول؛ تمنته حتى هذه اللحظة وهي تسند ظهرها إلى الجدار تنشده المؤازرة.. تمنت أن ترى صورةً لأطفال جلال من تلك الأخرى، وهل كان جلال أباً حنوناً لغير ابنها؟

لن يحضر لها الصور سوى ابنها محمد، فهو منذ ولد صاحب الكلمة الأخيرة في قلب الجدة، ولا يمكن أن ترفض له طلبا أبداً.. سيحتال عليها ويقنعها بصواب أن يرى صور إخوته وإن لم ترها والدته..

أخبرته عن رغبتها، فأطرق مشفقاً وهو يقول:

– أنا أعتذر يا أمي.. لقد رأيت صور إخوتي، ولكني لم أخبركِ حتى لا تحزني.. لن أغفر لأبي هجره إياكِ أبداً..

أوجعتها كلماته، فهمست – وهي تشد على كتفيه القويين –: لا تقل ذلك، كان أبوك مضطراً إلى السفر والاغتراب من أجل العائلة كلها، الشيء الذي لن أقبله هو رحيلك أنت.. إياك أن تستمع لجدتك إن هي أخبرتك بذلك، إياك يا محمد، فأنا حينها سأموت.. يكفي رحيل أبيك وحرماني منه..

ما تزال تحدق إلى وجوه الأطفال الثلاثة أبناء جلال من سواها.. الآن – فقط – أدركت أن العمر مضى بطيئاً مليئاً بالشوق،

وأن السنوات الطويلة سلبت منها سلمى

الفتاة الحالمة المتألقة، وغرست بدلاً منها امرأةً محطمةً تعيش بلا روح، مثل العشرات من النساء غيرها، نساءٍ داستهن أقدام الغربة والانتظار..

ضحية شرف

ما زالت سارة ذات الأربعة عشر ربيعاً، رغم تحذيرات الجدّة المتكررة لها بعدم السير في الحقول وحيدة، ما زالت الآن تجري تحتضن أعواد الذرة بعينيها وتلامس الأرض بخطوها الرقيق كفراشة تتقافز بين الحقول، تحب لحظات خروجها من المنزل كي تجلب اللبن لجدتها، كما تكره المكوث في البيت تراقب البنات الصغيرات يلعبن في ساحة القرية التي حرمت منها لأنها أصبحت كبيرةً بما فيه الكفاية كي تحتجب عن الأنظار، إلا أن قلب سارة الطفولي ما زال يعشق اللعب كالفتيات الصغيرات.

عزمت في نفسها أن تختار طريقاً أطول حتى لا تصل بسرعة إلى منزل الحاجة أم محمود صاحبة اللبن. تتمنى البقاء في هذا الجو الساحر الخلاب؛ فكنوز الربيع تزدحم في ريف القرى اليمنية في هذا الوقت من السنة والأرض تشبه بساطاً لامتناهياً من الجمال الفاتن، فحيثما ألقيت بنظرك تشدك مناظر الطبيعة الخلابة، فلا عجب أن قلب الفتاة تعلق بهذا الجو الساحر.

استوقفها رجل مسنٌّ كان يقف إلى جانب الطريق صائحاً:

– «يا بنت تعالي الله يستر عليك.. ساعديني..».

أسرعت سارة نحو الرجل بلهفة صبيانية، كأنها ترغب في إثبات مقدرتها على المساعدة وقالت:

– «نعم يا عم.. بايش تشتي أساعدك»؟

قاسـها الرجل بنظراته من أعلى إلى أسـفل كمن يثمّن عمرها اليافع ونشاطها الزائد وقال باستعطاف:

– «أشـتي أوصـل إلـى جربـة أخي وما أعـرف الطريق، أنا من قرية بعيدة وما أعرف غير اسم الجربة.. أنت تعرفي أسماء حقول هذه المنطقة فكل واحد يعرف قريته أكثر من غيره».

اندفعت سـارة تسـتعرض معرفتها لكل شـبر وحقل في قريتها قائلة:

– «نعم يا عم أعرف كل حقول القرية وأصحابها ولمن تكون.. قل لي بس اسم الحقل أعرف لمن هو».

هزّ الرجل رأسه باستحسان ولمعت عيناه وهو يذكر اسماً لحقلٍ في أطراف القرية مملوك لعائلة معروفة، واستدرك: هل تأخذيني إليه يا بنيتي؟

ارتسـمت الحيرة على ملامح سـارة ونطقت بها لسـانها عندما قالت بتردد:

– «نعم اعرفه.. هو بعيد يا عم وجدتي منتظرة اللبن وستصيح لو عرفت أنني بعدت عن الطريق الذي قالت لي».

شجعها الرجل بلهفة:

– «لا يا بنتي ما هوش بعيد عليك، أنت فراشة الحقل وعتطيري إلى جدتك بعد إيصالى مثل ما تطير فراشـات الحقول، ما معي إلاّ أنت وأنا فدى قلبك.. أنا متعب من الانتظار».

أدركتهـا الشـفقة وأغراهـا الإطـراء، لطالمـا تمنـت أن تكـون كفراشـات الحقول حقاً، تتنقل بينها بحرية وسـرعة وسـتكون الآن في سـرعتها وخفتها.. حدّثت نفسـها: «شـاوصّل الشـيبة بيت أخوه،

وارجـع مـا تـدري جدتي أين رحت..» وابتسـمت فـي وجه الرجل ابتسامة مشعة كأنما ارتضت ما قررته وقالت:

– «هيا يا عم اسرع اوصّلك وارجع هيا الحقني»...

ظلت سارة تسرد للرجل في الطريق أسماء الحقول التي يمران بهـا ومـن هـم أصحابها وتشـير للحقول الكبيرة التـي تخص والدها المغترب في أمريكا والتي يهتم بها جدها وجدتها، وكيف أن والدها يقضـي إجازاتـه هنـا هو وزوجته الثانية وإخوتها، وكيف أنها فضلت العيش في القرية تهتم بجديها على السفر إلى أمريكا حيث لا حقول مثل حقولهم..

وعلى مقربة من حقل الذرة المعنيّ وقفت سـارة تودع الرجل معتذرة عن إكمال الطريق الذي أصبح واضحاً بعد أن وصفته بدقة لهـذا الرجـل الـذي أصبح قلقاً فجـأةً ومترقباً يحدق في أعواد الذرة كأنما ينتظر شيئاً يظهر من بينها، وما لبث أن ظهر رجلان شابّان من بين الأعواد واتجها صوب سارة والرجل.. كانت ملامحهما تحمل الكثير من الشر والغضب.

شـعرت سـارة بالخوف يغزو قلبها الصغير وتذكرت تحذيرات الجـدة، وقفـز إلـى خيالها وجه والدهـا الغاضب ومخاوفـه الكثيرة حولهـا، وبـلا تفكير كثير حاولت سـارة الهروب والجري بعيداً عن الشـابّين اللذين يقتربان بسـرعة إلاّ أن الرجل المسـنّ التقط ساعدها بعنـف وجذبهـا بقـوة نحوه وغطى فمها بقبضته الكبيرة، كان آخر ما وعته هو أحد الشابين وهو يضع على وجهها خرقة رائحتها غريبة..

* * *

عندمـا فتحـت سـارة عيناهـا قفز إلـى عقلها الواعـي ما حدث

وبـدأت بالبـكاء والصـراخ، يـكاد الخوف يشـلّ حركتهـا المحدودة بالوثـاق حـول جسـدها الصغيـر. كانت تصيح برعـب دون أن تعي أنهـا وحدهـا فـي الحجـرة، إلاّ أن الباب الـذي صفق بقوةٍ أعاد إليها بعض الوعي، واقترب منها الرجل المسنّ ذاته وهو يقول:

– «لا تخافـي يـا سـارة مـا أحـد عيوجعك يا بنتي أبـداً.. احنا بس نحاول تأديب أبوكِ الحقير الذي يتعرض لبنات الناس في الطرقات ويرمي أعراض الناس بالباطل.. أنا أعرف أنه لا ذنـب لـكِ يـا بنيتـي لكن يجب أن يـذوق أبوكِ من نفس الكأس..».

كان لصـوت الرجـل المنفعل والمحبـط تأثير الماء البارد على رأس سارة المشتعل بالمخاوف والتساؤلات، فأصبح صراخها نحيباً خافتاً وهي تكابد رعبها وقلقها وهي تهمس من بين الدموع المنهمرة:

– «حرام عليك يا عم.. أنا ماذا فعلت بك.. جدتي سـتموت من القلق وأبي سيُجنّ.. حرام عليكَ اتركني أذهب قبل أن تعلم القرية كلها أنني عند ناس غرباء..».

أطلق الرجل ضحكة متشنجة وهو يصرخ في وجهها:

– «تشـتيني أخاف على شـرف أبوكِ وهو الرجل الحقير الذي يشـبب ببنـات الآخرين.. أبوكِ تعـرض لابنتي على الطريق وحـاول سـحبها داخـل الحقل.. تفهمـي وإلا لا.. لكن أنا مـا تركتك لأولادي ينهشـوك في حقـل الذرة.. أنت معززة مكرمـة هنـا فـي بيتـي.. فقـط تسـمعين أبـوكِ صوتـكِ في الهاتف..».

صعق قلب سارة.. هل تقول لأبيها أنها في بيت هؤلاء الناس

وماذا سيقول، بالتأكيد سيغضب وقد يضربها ضرباً مُبرحاً حين يعود من غربته، أرعبتها الفكرة كثيراً..

كانت مسترسلةً في خيالاتها المتوقعة عندما دخل أحد الشابين وهو يتحدث في هاتف خلوي بيده.. كانت أمارات السعادة والشماتة تكاد تسيل من تقاطيع ملامحه وهو يقول:

- «فقط حبيت أقولك يا حقير أنني جالس (مخزن) أنا وبنتك سارة في بيتي، وهي تحب تسلم عليك بهذه المناسبة المميزة..» وألصق الهاتف بصدغها بعنف أوجعها.. جعلها تطلق صرخةً وهي تصيح باكية:
- «لا تصدق يا أباه هم أخذوني غصب من الطريق.. يا أبي.. لا تصدق..» وابتعد الهاتف عن أذنها بنفس العنف.. تركاها تجهش في بكاءٍ حادٍّ ومرير، أحست بالخوف من أبيها أكثر من خوفها منهم، تذكرت كم سمعت من قصص عن فتيات تلطّخت سمعتهن بأحاديث الناس دون ذنب فعلنه وكيف دفعن الثمن لوحدهن، تمنت لو سمعت كلام جدتها عن خطورة السير وحيدة، تمنت لو لم تعشق الحقول المفتوحة والجري فيها، تمنّت لو ظلت حبيسة منزلهم بدلاً من تحليق الفراشات.. وازداد نحيبها أكثر فأكثر..

قضت سارة اليومين التاليين في بكاء ونحيب وهي تنتظر.. لا تدري ماذا تنتظر، لكنها سمعت أنّ والدها قد وصل إلى القرية وأن المشاكل محتدمة بين قريتها وقرية هؤلاء الناس وأن والدها يهدد بإحراق قريتهم كلها إذا لم يسلموا ابنته سليمة من كل سوء. هي لا تدري سليمة من ماذا..؟

فمـا يخشـاه أمثالهم هـو الفضيحة والعـار وأن يصبحوا مضغة الأفواه ولا سلام في هذا أبداً.. لقد أصبحت كل القرى تتحدث عن ابنة فلان التي اختطفت من قبل الشـابين ومكثت في منزلهم يومين أو ثلاثة، لم تعد تدري كم.. أو حتى لماذا..؟

حيـن دخـل والد الشـابين حجرتها المحتجـزة فيها ليعلمها أن عقـلاء القريتيـن قـد توصلـوا إلـى حل لم ترغب في سـماع أي نوع مـن الحلـول توصلـوا إليـه.. فقـط ترغب أن تعود إلـى منزلهم ولن تخرج منه ثانية إلى الحقول الفسيحة، ترغب أن يضمها صدر جدتها الحنـون وأن تشـعر بالأمـان مـرةً أخـرى فلا علاقة لهـا بنزاع هؤلاء الرجال أو ثاراتهم..

أخبرها العجوز أن والدها ينتظرها في مدخل القرية ومعه بعض الأقارب ورجال قريتهم، وأنها سـتكون بأمان منذ الآن فأبوها يعلم أنه لم تمتد يد خبيثة نحوها بأي سوء..

أوصلهـا الرجـل إلـى مشـارف القرية وتركها تسـير إلى قدرها المحتوم وحيدة، تحلم بعودتها إلى حجرتها وفراشها وصدر الجدة الحنون..

مـا إن لمحـت والدهـا من بعيـد حتى اعتصرتهـا عاطفة التّوق إلى حنان الأب المتلهف والقلق على ابنته وصرخت بصوت ملتاع: أبي.. أبي أنا بخير، لقد عدت..

رفع الوالد سـلاحه وصوّبه نحو الجسـد النحيل المرتعد.. لم تفهم سارة لماذا يشهر والدها سلاحه في وجهها.. تحشرج صوتها بخوف:

– «هذا أنا يا باه.... أب.....».

سيل الرصاصات الذي انهمر صوبها أخرس لسانها إلى الأبد..
والأب الذي أطلق زفرة ارتياحٍ غسل عاره الذي تمرغ في الوحل بدم ضحية بريئة؛ لكنها ضحية شرف...

بنت الأصول

اقترب الأستاذ يحيى من تلميذه علي والأفكار تتصارع في رأسه المربوط جيداً بالعمامة، وحدق إلى عينيّ الشاب بشرود قبل أن يؤكد بقبضته المشدودة على كتف علي:

– أنت نعم الشاب يا علي، أحيي فيك أخلاقك العالية، واجتهادك في عملك، والتزامك الديني، أنت بالفعل أفضل ما يتمناه الأب لابنته.

وأطرق الأستاذ يحيى برأسه مواصلاً شروده الذهني، ومصارعاً أفكاره الملحة، كان يتمنى وهو الرجل المعروف برجاحة عقله، ووجاهته المحترمة في مدينته، أن يكون سبّاقاً لخرق قانون هو أول من يلعنه ويقاومه، كان يتمنى أن تكون لديه الشجاعة الكافية ليقرر هذا القرار، لكن ميراث الأجيال المتلاحقة يخنقه ويبدد عزيمته.

عاد يحدق إلى علي، فيما كان علي يهم بالخروج من باب المسجد بعد انتهاء الدرس الذي ألقاه الأستاذ يحيى، وهو يفكر في هذا الشاب النادر في أبناء جيله، الناجح في حياته، المتميز بأخلاق عالية استقاها من التزامه الواعي، وتربيته العائلية الرفيعة.. تنهد يحيى محدثاً نفسه: من المؤسف أن هذا التردد ما زال يخالجه..

حين عاد إلى المنزل بعد صلاة العشاء فتحت ابنته زينب الباب، وحين طالعته بمحياها الجميل الهادئ تذكر علياً، وأيقن أنه من المعيب أن يتردد، ويترك شاباً كعلي تحظى به فتاة غير زينب..

وقبـل أن يتـرك لتـردده فرصة كي يسـتولي عليه كعادته؛ هاتف علياً داعياً إياه إلى العشـاء في منزله، وما هي إلاّ نصف سـاعة حتى حضر علي سعيداً بدعوة أستاذه وشيخه الجليل.

تبادلا أحاديث شيقة على العشاء، وازداد إعجاب الأستاذ يحيى بأفكار هذا الشاب، وقرر أن يحسم أمره.. هتف بحماسة:

- لمـاذا لا نزوجـك يـا علي؟ لقـد آن الأوان أن تكمل نصف دينك، وأنا عليَّ العروس التي تستحقك.. ضحك علي وهو يهمس في حرجٍ:
- حفظكم الله يا أستاذي، إنه لشرفٌ كبير لي أن تشملني بركة وجودك في زواجي، لكني لم أجد البنت المناسبة بعد، وما تجود به قريحتك هو خير لي..

ارتفع نبض الأستاذ يحيى وهو يقول في حماسةٍ:

- أنا أزوجك ابنتي زينب يا علي.. جمال وأدب وعلم.. امتقع لون علي، واتسعت عيناه إلى أقاصيهما وهو يقول:
- مـاذا تقول يا شـيخنا، أنا أتـزوج كريمتكم.. وأطرق بحزن، وهو يقول:
- هل نسيت من أكون يا أستاذ يحيى؟

أكبر الأستاذ يحيى رد فعل الشاب، وقال:

- يـا بنـي إن أكرمكـم عنـد الله أتقاكم، وأنا وأنـت نعرف أنها تقسـيمات مـا أنـزل الله بهـا من سـلطان، وكل النـاس أمام الله سواسـية.. وكلنـا مـن أب واحـد وأم واحـدة.. لا أريـد أن أرى أمـام عينـي مـن أرتضي دينـه وخلقه ثم أحرم ابنتي مـن الارتبـاط بـه، وها أنذا أخطبـك يا علي وضحك براحة

شديدة.. وتابع كلامه:

- أخطبك أنا، وأقول لك: لا تهمني هذه التقسيمات، وأتقرب إلى الله بمحاربتها ورفضها، فكن معي سبّاقاً إلى هذا الخير الكبير، وتعال نتفق على عقد قرانكما بعد النظرة الشرعية.. ماذا قلت؟

غرق علي في لجة من الحياء والسعادة الغامرة، ولم يدرِ ما يقول أو يصنع سوى أن ينهض ويقبل رأس هذا الشيخ الفاضل الذي ضرب أمام عينيه أروع مثال للرجل الملتزم حقاً.. وكأن رد فعل علي قبول صريح بمغامرة كبيرة سيواجهها بكل الإيمان الذي في صدره.. صاح الأستاذ يحيى منادياً زينب أن تقبل إليه، وخرج هو ليجذب الفتاة الخجلة المندهشة، وهو يقول:

- هذا الأستاذ علي يا زينب تعرفينه من كلامي عليه، وقد جاء كي يخطبك مني، فما رأيك فيه؟ وهل تقبلينه زوجاً؟

تملصت الفتاة من قبضة والدها، وخرجت وهي تتعثر بخجلها وحرجها، لكنها تعرف أباها وأسلوبه الصريح في الحياة..

وقف علي مبهوراً إزاء هذا الرجل الذي يدفع ابنته كي يراها رجل غريب قد لا تسمح ظروف الواقع أن يتزوجها، وقف مبهوراً أمام ملاحة الفتاة وصغر سنها وشخصية والدها الفذة..

لم يخرج علي من منزل الأستاذ يحيى إلاّ وقد قرءا معاً الفاتحة، وسمع بأذنيه موافقة زينب من وراء الباب، كما سمع أيضاً مشاحنةً حادةً بين الأستاذ يحيى وبين زوجته حول هذا الزواج، وسمع بأذنيه تلك العبارة التي ثقبت قلبه، وخسفت بسعادته الأرض حين صاحت الأم:

- كيف تزوج ابنتك لجزار يا حاج يحيى؟ كيف؟ وانقطع الصوت لا يدري انطبقت أذناه أم انطبق فم الأم المعترض؟

هو لا يدري كيف سينتهي الأمر، كما أنه لا يدري هل سيعرف النوم الطريق إلى عينيه هذه الليلة؟

تداعى رجال عائلة الأستاذ يحيى للحضور إلى منزله فور علمهم بنبأ خطبة ابنته زينب، وكيف اتخذ قراراً في أمر مهم كهذا دون العودة إلى عائلته المعروفة بعلوّ منزلتها؟

حاولوا كثيراً إقناعه بالعدول عن هذا الزواج الذي سيمرغ سمعة العائلة في التراب فتلوكها الألسن، عرضوا خيرة الشباب كعرسان محتملين لزينب، إلاّ أن الرجل حاجَّهم بقناعته الشخصية أن هذا ليس من الدين في شيء، وأنه يجد في علي الزوج الذي سيحافظ على ابنته..

تمت مراسم الزفاف بشكل طبيعي رغم مقاطعة العائلة لها، وحضور رفيقات زينب من بنات الأسرة، وزفت زينب إلى علي بين مستهجن للأمر من طرف وبين مكبر للأستاذ يحيى من طرف آخر..

أما علي فقد بذل كل ما في وسعه كي يظهر أمام عائلة زينب بمظهر الرجل الجدير بابنتهم، فأغرقها بكرم شديد، وأصر على أن تكون كسوة العروس ومصوغاتها من أفضل ما يكون، وأن تصل إلى منزل الزوجية المعد بشكل متكامل، فكان عرس زينب حديث المدينة كلها..

قضيا معاً ثلاث سنوات من أفضل أيام العمر، لا ينغص سعادتهما سوى مقاطعة العائلة لأسرة زينب ومناسباتها، وهي العائلة

المتماسكة المترابطة.

فعندما رزقت زينب طفلها الأول لم يحضر تلك المناسبة أحد من أعمامها أو أخوالها أو حتى نساء العائلة.. لكن معاملة علي كانت تخفف عنها الكثير من ألم العبارات الطائشة إلى مسامعها..

كانت أول صدمة واجهت أسرة علي الصغيرة هي قضية زواج أخي زينب المعد له منذ فترة طويلة، عندما تنصلت عائلة الخطيبة منه تماماً بحجج واهية، وأصبح لزاماً على الأستاذ يحيى البحث عن عروس مناسبة لابنه الذي رد السبب إلى وجود نسيبهم علي ضمن العائلة، فليس كل الناس الأصول ترغب في مناسبة جزار أو مداخلته بعلاقة أسرية..

أدرك الأستاذ يحيى أن معركته الحقيقية مع المجتمع بدأت الآن فعلاً، فكلما عرّض لخطبة إحدى بنات العائلة جوبه بالرفض والاستنكار، وكأنهم يصرون على أنه لم يعد منهم، ومقاطعته ليست كلاماً يمحوه مرور السنوات.. فلا أحد يرغب أن يكون في جذوره قليل أصل، أو أن يُعيّر ولده بعمه أو خاله الجزار..

كابد الأستاذ يحيى الإحباط دون أن يشرك لسان زوجته السليط في بحثه عن عروس لائقة لابنه.. وحين رزق علي وزينب طفلاً آخر أسمياه يحيى، لم يفرح الأستاذ يحيى لقدوم حفيده الثاني بالحماسة نفسها..

كان يشعر بالحزن لأن رجال عائلته الذين كانوا يجلونه ويحترمون مشورته، ويسعون لإرضائه، ويعتبرونه مصدر الفخر لديهم قد أصبحوا يتحاشون النظر إلى وجهه إن التقوه مصادفةً، ولا يرحمونه من سخريتهم وتهكمهم..

لقـد ضربـوا حولـه حصـاراً خانقـاً، وأقصوه إقصـاءً كاملاً عن شؤون العائلة، حتى أن بعضهم تبرأ من قرابته كأنه مصاب بوباءٍ ما..

أمـا أبنـاء الأسـتاذ يحيى فعانوا من مثالية أبيهم معاناةً شـديدةً، ولحقهم من السخرية والشتائم ما لم يصبروا عليه صبر أبيهم، حتى أن أوسطهم دخل يوماً على أبيه حجرته وهو يفرك يديه مرتبكاً ضائقاً لا يدري كيف يخبر أباه بما سمعه من الأولاد في المدرسة، جلس قبالة أبيه مطأطئ الرأس منكسراً.. فابتدره أبوه بالسؤال:

– خيراً يا ولدي، ما بك تبدو حزيناً منشغل البال؟ هل لديك مشكلات تحب أن نناقشها؟

هتف الولد محتاراً:

– يا أبي، هل رأيت؟ لقد مر على زواج زينب سنوات، ولكن النـاس ما زالوا يسـتنكرون ويتحدثـون حول زواجها وكأنه جريمة في العرف والتقاليد، واليوم قال زميلي كلاماً سـيئاً في وجهي. وصمت محرجاً، لم يعرف الفتى أي حجر ثقيل رمى على صدر الوالد المثقل بهموم كالجبال..

همس الأب مكتئباً:

– ماذا قال هذا الغبي؟

همس الابن خائفاً:

– يـا أبـي، قـال إننا زوجنا ابنتنـا لجزار كي نسـترها، يعني... وصمت..

زفـر الأسـتاذ يحيـى بحرقـة.. إلـى متـى يتلقـى كل هـذا الكم المشتعل من الاتهامات؟ لماذا الناس سيئون إلى هذا الحد؟

إنـه نـادم أشـد النـدم علـى إبرامه ذلك الزواج فـي لحظة مثالية

بائسة لا تنفع في مجتمع تشرّب حتى النخاع بعادات وقوانين جاهلية متخلفة عنصرية..

لقد أعجزوه، فلو استطاع إعادة الزمن إلى الوراء ما زوّج زينب هذه الزيجة المنحوسة.

الأستاذ يحيى بدأ – في محاولة مستميتة منه – استمالة أبناء عمومته وإخوته كي يذيب جدار الجليد في علاقتهم بسببه هو وقراره الخاطئ، وبدأوا بدورهم يضغطون عليه في استماتة مقابلة كي يطلق زينب من علي، ويطفئ هذا العار والعيب في حقهم.. وكان الضغط والإغواء قويين، فأولاده هم من يدفعون الثمن، ومن ثم بعدهم أبناء زينب مستقبلاً.

استحكمت فكرة طلاق زينب وعلي على تفكيره، وأصبحت الحل المثالي من أجله ومن أجل العائلة كلها، وعلى رأسها أسرة زينب التي ينتظرها مستقبل أشد تنكيلاً في هذا المجتمع المتخلف العنصري..

وفي محاولة بائسة فاتح زوج ابنته بمدى معاناة عائلته وأبنائه بسبب هذا الزواج، وطلب إليه أن يتفهم رغبته في انفصاله عن زينب..

صعق علي، فلم يتوقع أن يصدر هذا الحديث عن عمه الأستاذ يحيى، ذلك الرجل المثقف الواعي الملتزم دينياً إلى أقصى حد.. لم يتوقع أن يختار طريق تدمير عائلة سعيدة لا ذنب لها، وأن يكون أبغض الحلال هو الأقرب إلى قلبه، لكنه استجمع شتات نفسه ليقول بحزم:

– أنا أعتذر يا عم يحيى، أنا أحب زوجتي ولن أفارقها أبداً،

ولن أمزق عائلتي وأحرم أطفالي من أمهم من أجل رغباتك أنـت وعائلتـك المقدسـة.. إن هـذا لا يرضي الله أبداً.. لقد قلتهـا لـك يوم اقترحت عليّ الزواج، لكنك أكدت لي أنك علـى يقيـن وعلـى ثقة بما تؤمن بـه.. إن تزعزع إيمانك بما تعتقد فإنني أؤمن بوجوب الحفاظ على عائلتي ولن أدمرها أبداً..

انصـرف علـي والأحزان تتناوشـه، وصدمته فـي قدوته ومثاله الأعلـى تكتـم أنفاسـه.. يخشـى أن تقتنع زينب بـكلام أبيها وترحل عن منزلها وحياته..

عاد علي إلى المنزل شارد الذهن مكتئباً، لمح القلق في عيني زوجتـه، فـأدرك أن لديهـا خبـراً بما يجول فـي رأس أبيها.. وجد أنه من الأنسب أن يخبرها ويرى ويسمع رأيها، وحين سرد عليها الأمر بكثيـر مـن الهـم والقلـق كان يترقب ردة فعلهـا، وكانت هي تترقب خطوته الأولى.. همس بقلق:

– ما رأيكِ يا زينب؟

هتفت بحزن:

– أتسـألني مـا رأيـي؟ أنا لن أترك زوجـي وأولادي لو قُتلت، فهل ستتخلى عني أنت إرضاءً لأحد؟

أنا لن أتخلى عنك يا علي أبداً، أنت الزوج والأب والأخ، وحتى الأم الحنون..

طفـرت الدمـوع مـن عينـي علي، وغص بها حلقه.. لن ينسـى أبـداً هـذه الهبـة الرائعـة التي أهداها له الأسـتاذ يحيى.. نعم الزوجة والحبيبة زينب.

وكأن شبح الانفصال قد ربط بقوة على قلبيّ الزوجين فزاد حرص وتفاني كلٍّ منهما للآخر، ولم يعد ذلك الكلام الموجع ينغص حياتهما.

تجاهلا زيارات أمها في حملات الإقناع والترك وتحميل زينب ما يعاني إخوتها من إحباطات في مشاريع زواجهم المأمولة.

كان علي يقضي جلّ وقته مع زوجته وأطفاله، مساناً لها في رعاية الصغيرين ومحاولاً أن يملأ ذلك الفراغ الذي أحدثته مقاطعة عائلتها إياها، وانصراف والدتها مغضبةً منها ومقاطعة زيارتها..

وفي أمسيةٍ هادئةٍ رن الهاتف بإلحاحٍ، ردت زينب على المتحدث، وعادت إلى زوجها في حجرة المعيشة وقد تغير لونها وخالجها القلق.. سألها علي حين أدرك تغيرها:

– من المتصل؟ هل هو أبوكِ؟

همست:

– نعم أبي.. يقول: أن أمي مريضة جداً، وترغب في رؤيتي.

نهض عليٌّ مسرعاً وهو يقول:

– ارتدي ثيابك، سآخذك، هذه أمك يجب أن نتأخر، سأخرج لشراء بعض الأغراض حتى تعدي نفسكِ والصغيرين.

خرج علي ونهضت زينب تعد نفسها للخروج.. كانت قلقةً، والحيرة تنهش قلبها.. كانت تشعر أن هناك ما يقلق، لكنها عزته إلى مرض والدتها، لا تدري هل تأخذ للصغيرين ملابس كافية؟ هل ستبقى إلى أن تشفى أمها أم تزورها وتبقى حتى الصباح ثم تعود إلى بيتها؟

أصرّ علي على أن تصل زينب إلى منزل والدها محملةً بهديةٍ

مشرفة بكل ما تشتهي النفس إكراماً للأسرة كلها، إلاّ أنه في المقابل لم يجد الحفاوة المعتادة أو القبول الذي يرجوه، بل استقبل كشخص غريب وغير مرغوب بوجوده.

وجد هناك من عائلة زينب من لم يعرف وجوههم من قبل. كان إخوة الأستاذ يحيى قد اتفقوا أن ينتزعوا ابنتهم من بيت زوجها بطريقتهم.. استدراجها إلى منزل أبيها، ثم منعها من العودة إلى منزل زوجها، ولهذا كان استقبالهم لعلي بارداً وطلبهم أكثر قسوة..

تحدث الأخ الأكبر للأستاذ يحيى بهدوء وهو يظهر رجاحة العقل والاحترام لعلي قائلاً بفتور:

- أستاذ علي، الظروف دائماً تحكمنا، ووضعنا حرج جداً، نتمنى أن تتفهم وتقوم بطلاق ابنتنا دون مشكلات أو محاكم. ارتباطكم يضر أولادنا وأولادكم مستقبلاً.

إن زينب ستبقى في منزل أبيها، ولا مجال أن تعود معك، وإن شئت خذ طفليك أو اتركهما ما داما بحاجة إلى أمهما حتى تجد من تعتني بهما.

يتحدث عن قرار قد اتخذ، ولا مجال لمناقشته. لم يشعر علي طوال حياته بهذا الإذلال وهذه المهانة والألم.

إنهم يتعاملون معه ومع حياته وكأنها لا شيء، تشريد طفليه وحرمانهما من أمهما، حرمانه من زوجته التي يحب، تدمير عائلته، وقوفه أمامهم ضعيفاً ومصدوماً، كل هذا لا شيء في نظر هؤلاء المتعجرفين..

كل هذا الألم أعطاه القوة كي يقف منتصباً شامخاً، ربما استقى ذلك الشموخ من إيمانه بأنه على الحق، وقف ليقول لهم بصوتٍ

ثابتٍ وثقةٍ زائدة:

أعتذر يا جماعة، لن أطلق زوجتي وأحرم ولديّ منها، أمامكم المحاكم أو ما تشاؤون. لن أطلقها إلاّ إذا طلبت هي ذلك، واندفع خارجاً يغالب دمعةً تفر رغماً عنه.

كانت عبارة علي قد وضعت زينب في وجه المدفع، أو بعبارةٍ أكثر دقةً تحت الرحى، ورحى الكلام والإقناع تسحق أحياناً أقوى العزائم والرغبات.

إلاّ أن زواج زينب لم يكن سوى حياة أسرة والتضحية بإنسان نبيل ومحب لأشخاص هم بالدرجة الأولى لا يفكرون بها أو بمصير ولديها بالقدر الذي يفكرون فيه بأنفسهم ومصيرهم ورغباتهم..

لقد كان هذا التفكير يعطيها قوةً كبرى كي تواصل الرفض وتصر كلما أصروا.. وبالقدر الذي خشي علي أن تستسلم كان في قرارة نفسه يترك لها الخيار، فهذه المرة سيكون انفصالها عن عائلتها نهائياً ومدمراً..

استمر احتجاز زينب في منزل والدها ثلاثة أشهر كاملة، كانت تُمنع من الخروج، وتُحاصر من الهروب، وتبقى ضمن مراقبةٍ شديدة، ليس لها سوى اختلاس مكالمة هاتفية كلما أتيحت لها الفرصة، فقط كي تطمئنه عليها وعلى الولدين، وتؤكد له تمسكها بزواجهما الذي لا يحق لأحدٍ إنهاؤه وقت يشاء..

وعلي بدوره لم يألُ جهداً في إرسال الوساطات والترضيات إلى عائلة زينب، وأصبحت قضية طلاق زينب وعلي حديث المدينة كما كان زواجهما، وترقب كل من حولهم نتيجة مرضية لهذه الحالة المؤلمة التي بدأت بقرار من شخص وانتهت بقرار آخر مغاير من

نفس الشخص..

أما الأستاذ يحيى الذي فاجأه إصرار ابنته على زوجها مذكرةً إياه حين سحبها من يدها كي تقف أمام علي ليقول لها والدها:

- هذا من ارتضيته لك، وأعرف أنه أفضل زوج مستقبلاً، تقول له كل مرة:
- أنا اتبعت رأيكَ أنت يا أبي، ولن أقبل رأياً يمليه عليك أعمامي وكل من حولك..

لم يعد يدري الأستاذ يحيى ماذا يفعل؟

لقد اشترط زوجها طلبها للطلاق وهي ترفض بكل قوة.. هو الذي رباها على الإصرار على الحق، وكان يجب عليه أن يجد حلاً إزاء عنادها وخروجها عن رغبته.

محاولته الأخيرة لإقناعها بائسة؛ فقد قابلت حمم الغضب المندفعة في وجهها بهدوءٍ وصبر.. أبداً لن تتخلى عن زواجها.. كان يرغي مهدداً في وجهها:

- إذا لم تعودي إلى صوابك، أقسم يا زينب أن أتبرأ من بنوّتك، فلا أنت ابنتي ولا أنا أبوك، ولن تحملي اسمي أو ترثيني، سيكون ذلك بحكم محكمة، ولن تعودي إلى هذا البيت لا حيةً ولا ميتة..

قرري، أتبيعين أهلكِ من أجل رجل أنا الذي زوجته بيديّ، وضرب وجهه بيديه بانفعالٍ أرعبها حتى كادت تسقط أرضاً. شعرت أنها وصلت إلى طريقٍ مسدود، ولا أمل أن يتفهم والدها رغبتها أو أن يحترم إرادتها.

يجب عليها أن تخرج من هذا البيت وهذا العالم الذي أحبته

وتربت فيه إلى علي زوجها وحبيبها، الأب والأخ والأم..

أسرعت ترتدي ثيابها وتحمل صغيريها بيديها، قبل أن يمنعها أحـد عنـوة. لـم تلتفـت إلى صرخـات والدتها وهي تأمرهـا بالبقاء، والتحلي بالعقل، واحترام رجال الأسرة.

لم تبال زينب حتى بأبيها وهو يصرخ من داخل الحجرة: دعيها تذهب إلى الجحيم، لم تعد زينب ابنة الأستاذ يحيى ولن تكون أبداً..

حبيب العمر

كان قـد رحـل عنهـا منذ زمن، تركهـا تعبّ من ذكريات نصفها تقريباً من وحي خيالها فقط، فقد كانت المدَّة التي عاشاها معاً تشبه الخيال العابر..

هي لا تعرف عنه سوى أنه رجل دائم البحث عن حياة أفضل، رجـل بـلا أهـل تغرَّب أكثر عمره عن وطنه، واختارها لتكون الوطن والأهل..

كل يـوم لا تمـلّ الجلوس أمامه، تحادثـه بحكاياتها المتكرِّرة، وتشـكو أشـواقها إليه، وكيف أن صمتَه يحرقها، وبُعدَه يكوي أيامها ولياليها الحزينة، تغضب من صمته الطويل فتمد أصابعها المرتعشة تلمس شـفتيه المطبقتين كأنها تتلمَّس ظلَّ ابتسـامةٍ متحجرةٍ غادرها الدفءُ ذات ليلة صادمة..

لطالما ثقبت فؤادها تلك الابتسامة؛ حين تلوح من بين تقطيباته الدائمة، همست بنوح حزين:

- أين الطريق إلى الراحة؟..
- أين الطريق إلى شفتيك أدفن بينهما أشواقي وأفنى؟..

تمنيتُ أن أُصلب دهراً طويلاً بين ذراعيك أو حتى أموت..

لكنه رحل.. تركها تعرف الشـوق الذي كانت تسـمع به زائراً يطحـن مضيفيـه ويتركهـم فراغاً.. تركهـا؛ لأنه لم يعد يحتمل الحياة معها، أو يرغب في تحميلها العار..

هل لهذا الفراق قلب؟ كيف يشطر الناس أنصافاً ويرحل؟ كيف يسلب الروح ويبقى على الجسد يتحرك جثةً هامدة؟

لقد ظنَّت لوهلة أنها ستموت لوعةً وحزناً ولكنها – ولكم تعجبت – لم تمت ولم تعش، كانت مسكونةً بهِ، وهو روحَها وذهب.

معادلة صعبة ولكنها أيقنتْ أنه هنا معها، وهي هناك معه وستبقى بقية عمرها تنتظر اللقاء..

أيقظتْها طرقاتٌ ناعمةٌ على باب حجرتها من إكمال طقوسها اليومية، وفتح الباب ليطلَّ وجهُ الصديقة الحميمة صارخاً:

– مملة.. مملة.. ألا تملين النظر إلى سحنته، لو كنت أنت من رحل لكان ملأ حجرتك بصور النساء الجميلات ونسيَ تقريباً ماذا تشبهين..

اغتصبت ابتسامةً مشتتة.. تعرف رأي صديقتها في قصة حزنها الطويل على من تحب، فلم تجادلها؛ لقد تعبت من تبرير هذا الحب وهذا الإخلاص، فانتظرت سيل الأوامر والطلبات من فم صديقتها مذعنةً لكل ما ترغب، واكتفت بترديد الكلمة الأخيرة بهمس:

– نعم اتفقنا، وخرجت الصديقة كما دخلت بجلبة تفسد جمال السكون..

تذكرت أنها كانت تهاتفه في ساعة متأخرة من الليل؛ كي تطمئن أن صوتها هو آخر ما يسمعه قبل أن يخلد للنوم، وتتمنى عليه أن لا يحلم بسواها، وكان يضحك هامساً:

– لم أستطع الحصول عليكِ إلاّ بمشقة وخسارة مالية فادحة، فكيف سأبعثر أحلامي في سواكِ؟ وكيف سيتاح لي ذلك؟

بالكاد حصلتُ على امرأة واحدة بعد سنوات الغربة والتعب..

ردُّهُ يغيظها كثيراً، تمنَّتْ أن يقول إنها وحدها من تشغل حواسَه كلَّها، ولن يفكر في سواها، ليس لأنها فقط المتاحة أمامه..

ربما تكون صديقتها الخبيثة على حق، فلو رحلت هي لكان قد ملأ حجرة نومِهما بصور النساء غيرها.. لكنها تعرف أنهما لم ينفصلا بصورةٍ طبيعية.. ولكان ملأ حياتَه بامرأة أو أكثر..

تذكرتْ الاتفاق الذي أبرمته مع صديقتها قبل قليل، ونهضت تعد نفسها للخروج إلى منزل صديقتها، هذه الصديقة التي تعرفت إليها في أحلك أيام عمرها، وكانت نعم السلوى في سنوات الجدب والألم..

همَّت بفتح خزانة ملابسها.. إنها لا تفتحها أبداً.. فكَّرت أن ترتديَ من ثياب العرس الجديدة التي لم ترتدِ أيَّاً منها.. حين طالعها فستان الزفاف كشبح أبيض بلا لون حاولت أن لا تصرخ؛ لقد أعاد إليها ذكرى الليلة التي انتظراها معاً بشوقٍ جارف.. ليلة الزفاف التي تحوَّلت إلى مأساة عمرها كله.. نظراته المصدومة لا تفارق خيالَها، وخيبة أملِها وخوفَها، مذاقهما في فمها باقٍ للأبد..

كيف أصبحت هكذا..؟ هي لا تعلم.. وهو لم يقتنع بتوسلاتها وتبريراتها..

في مدينة بعيدة مع الحبيب الذي تحول إلى وحش يمزق كرامتها باتهاماته، ونظرات الاحتقار في عينيه.. أصبح غريباً كما كان الأهل يخبرونها عنه حين أصرَّت على الارتباط به.. مجرد رجل غريب أتى من غربته البعيدة ليخطف قلبها ويخطبها زوجةً ويحملها

بعيداً.. حيث لا تجد من تهرب إليه..

لم تستمر لحظات اللقاء المحبط سوى ساعات، اعترف لها أنه لن يقبل على نفسه زوجةً ليست عذراءَ، لا يدري أين فقدت عذريتها..؟ وأنه لن يلحق العار بقلب أحبه بصدق؛ لذا طلقها..!

وطلب منها المكوث في منزله ضيفةً حتى يسافر من جديد إلى غربته الطويلة.. كان شهراً من الجحيم الأبدي، جرَّبته تلك العروس المطلَّقة فيما يشبه الموت الحي..

تفتقد ذلك الزائر لمنزله خلال النهار، وتبكي حُبَّه طوال الليل.. وأبداً لم يترك عينيه لتلتقيا مع عينيها المعذبَتَيْنِ، أو يسمح لنفسه بالوقوف لحظةً واحدةً يسمع شكواها ودفاعها المستميت عن شرفها المفقود..

ومع انقضاء الشهر؛ أعادها إلى أهلها معززةً مكرمةً، محملةً بالهدايا للجميع.. ورحل..

كل البكاء والنحول الغريب، وحتى الضياع، مبرراته جاهزة للجميع؛ لقد فارقت عريسها الذي تحبُّه حين رحل إلى بلاد الغربة من أجلها، ومن أجل أن يبني حياةً مستقرةً لهما مستقبلاً..

هي وحدها تعلم أنها فقدته إلى الأبد، وإن كانت تحلم بعودته دائماً.. حتى عندما أتى خبر وفاته في حادث سير لم تصدق.. لقد فعل ذلك حتى يخلي ساحتها أمام الآخرين، وتصبح أرملتَه بدلاً من أن تكون مطلّقته..

لكنها ستصبح أرملته إلى الأبد أو حتى يعود.. استفاقت من رحلتها المعتادة وتجوالها في ذكريات تنهش راحتها كل لحظة،

وأسـرعتْ إلـى الخـروج من معقل أحزانها، تلـك الحجرة في منزل والديها التي حوَّلتها خلال سنواتٍ إلى صومعةِ ذكرياتٍ فقط..

حيـن وصلـتْ منزلَ الصديقة؛ أحسَّـتْ أن فـي الأجواء إحدى المؤامرات المعتادة منها، التي لا تملّ من حياكتها، كما أنها هي لا تملّ من حزنها على ذلك الرجل الذي أحبته..

تبتسـم، رغمـاً عنهـا؛ لخيالات صديقتها.. كيف يتسـنى لها أن تنسـى وتتـزوج رجـلاً آخرَ.. أفـكار الصديقة المُحبَّـة انحصرتْ في كيفية تدبير زوجٍ لها..

تجمَّع أبناءُ الصديقةِ حولَها، يسردون عليها حكاياتِهم البريئة.. وفكَّرتْ، لو استمر زواجُها، كم من الأطفال تكون قد أنجبتْ خلال أكثر من عشر سنوات.. هل سيشبهون ذلك الرجل الذي أحبَّت..؟

أفزعَها صوتُ الصديقةِ وهي تصيح بالصغار: اخرجوا من هنا، اتركوا الخالة مريمَ ترتاح وإلاّ ستحرمنا زياراتِها الهلالية..

وأغلقـت بـابَ الحُجـرة خلفهـم، واقتربـتْ من مريـم بصورة أدركت فيها مريمُ أنَّ وراءَ نظراتِها المترقبةِ شيئاً تعرفه تماماً.. وقبل أن تبدأ مقدِّمتَها الطللية المعتادة همست مريم:

– ماذا لديكِ هذه المَرَّة.. ألا تملين يا صديقتي..؟

أطلقتْ صديقتُها ضحكةً مجلجلةً؛ وهي تقول:

– هـذه المـرة لـن تفلتـي، إنَّـه الرجـل المناسـب فـي الوقت المناسـب، لـن تصلبي عُمُرَكِ من أجـل رجلٍ توفي وانتهى الأمر، هيا يا مريم، أكثر من عشـر سـنوات من الوفاء تكفي كثيـراً، إنهـم حتـى لا يخلصـون لنا عشـرة أيـام، وواصلت ضحكتَها المجلجلة..!

أطرقت مريمُ.. أبداً لن تقبل برجلٍ آخرَ، لو قضتْ بقية عُمُرِها وحيدةً تحكي ذكرياتِها للصور.. أبداً لن تجد قلباً كقلب ذلك الرجل..!

استمرتْ صديقتُها في تزيين الرجل أمامها، وهي تعدد مناقبه:

- يا مريم؛ إنَّه رجل ناضج ومرتاح مالياً، ظلَّ طوال عُمُرِهِ، يعمل في الغربة؛ حتى أصبح صاحبَ أموالٍ وعقاراتٍ، وهو أيضاً بلا زوجةٍ..

فقد ماتت زوجتُه بعد زواجهما بفترة وجيزة، فانغمس في العمل حتى أدركته السنوات ورغب في العودة إلى الوطن؛ كي تكون له أسرة كبقية الناس، كل ما يطلبه فيكِ أنتِ.. امرأة أرملة، لا يريد فتاةً.. يريدها طيبةَ القلب، وخلوقةً، وحنونةً، وجميلةً، وكل هذه الأوصاف تجتمع فيكِ وتنطبق عليكِ.. هيا يا مريم، ماذا قلتِ..؟ الرجل سيأتي الآن وعليكِ أن تلقي نظرةً عليه. صرخت مريم بذهولٍ:

- لا، لن أتزوج رجلاً آخرَ أبداً.. أبداً.. أنتِ لا تفهمين يا صديقتي، لن أستطيع أن أكون زوجةً لرجلٍ وأنا أحب آخرَ بكل جوارحي..

بادلتْها الصديقةُ الصراخَ، وهي تهتف:

- تحبين ماذا..؟ الرجل مات!.. ألم يبلغكم صاحبه بالغربة أنه مات في حادث سير، أم أن كونكِ لم ترَي جثمانَه قد جعلكِ تشُكِّين في موته..

كثيرون يموتون هناك في الغربة ولا تعود جثامينهم، تُدفن بعيداً لأن هذا قدرهم، لكن لا يعني ذلك أنهم أحياء يا مريم.. ماذا فعل ذلك الرجل الغريب فيكِ..؟

همست مريمُ:

– مـاذا فعـل بـي..؟ بل ماذا فعل من أجلي؟ أو ماذا فعلت أنا به؟

لا أدري ماذا فعلت الأقدار بنا.. وأجهشت بالبكاء.. احتضنتها الصديقـة بعطـفٍ ومواسـاةٍ، قبـل أن يدخـل الصغـارُ كالإعصـار، صائحين: أبي جاء، أبي جاء.. همستْ: لابأس يا مريم، فكِّري قليلاً.. سأعد الضيافة للرجل..

تركـت مريـم تكمـل بكاءها الصامت وخرجت تخبر الزوج أن لا فائـدة مـن إحضـار صديقـه؛ فمريم ترفض الارتبـاط بأي رجل.. امتعض زوجُ صديقتِها قبل أن يتجه نحو الرجل مرحباً ومعتذراً..

خاطبه بحرجٍ بالغٍ:

– إنَّ صديقـةَ زوجتـي هـذه امرأة نادرة، تخلص لرجل لم يبقَ معها سـوى شـهر واحد، ثم يرحل بعيداً ليموت في سـفره دون أن يترك لها طفلاً أو أيَّ شـيءٍ يربطها بذكراه.. خلال أكثر من عشر سنواتٍ ترفض الزواجَ وتُصر على البقاء أرملةً تحترم ذكرى حبِّ الشباب الأول.. خسارة يا خالد أنك لن تفوز بها..

ابتسـم خالد، ففي قرارة نفسـه لا يهتم أن يفوز بأي امرأة.. إن مسألة زواجه تحصيل حاصل؛ يجب أن يكون له عائلة وأن يستقر، أما مسألة العواطف فقد نحاها جانباً منذ سنواتٍ طويلةٍ..

جلسا ساعةً من الزمن يتحدثان عن مصاعب الغربة وتحصيل الرزق، وكيف أن خالداً بدأ حياتَه كادحاً، يجمع العملة فوق الأخرى حتـى يتمكـن مـن الـزواج بالفتاة التي أحب، حتـى تموت بعد ذلك

وتتركه وحيداً سنوات شبابه الأجمل..

ثم نهض ليستأذن في الانصراف، على أمل أن يبحث الزوجان عن عروس مناسبةٍ له..

جلست تفكِّر في الإحراج الذي سببته لصديقتها وزوجها، حين تناهى إلى سمعها صوت المتحدث وهو يودع زوج الصديقة..

هذا الصوت.. كم يشبه صوتَ حبيبٍ من الماضي، وأرهفت السمع أكثر، هذا الصوت الحنون الرخيم، وانسكبتْ دموعُها بلا توقف، إنَّه يشبه صوتَ زوجِها الراحل..

سمعت زوجَ صديقتِها يودِّع الرجلَ قائلاً:

- اعذرنا يا خالد، يجعل الله الخير في سواها، وضحكا.. وتوقَّف كلُّ نبضٍ في جسدها.. هذه الضحكة العذبة.. خالد.. إنه خالد، وفتحت باب الحجرة.. وهناك في الردهة الصغيرة رأته..
- إنه خالد حقاً، لون شعره اختلف كثيراً، لكنه خالد.. وتوقف مرور الوقت، كي يستريح من رحلة دامت لأكثر من عشر سنوات مُزجت بالشوق والحنين..

في أقصى أحلام خالد، لم يكن يتخيَّل أن يلتقي بمريم مرةً أخرى، عوضاً عن أن يتقدم خاطباً لها من جديد.. همس بحرارة:

- مريم، هذه أنتِ حقاً.. وارتمت مريم عليه..

الآن فقط عرفت الطريق إلى الراحة؛ خالد بين ذراعيها حيٌّ يُرْزَق..

أمنية قاتلة

ناهـزت الأربعيـن وفاتتهـا جميـع وسـائل مواصـلات الزواج المتيسـرة، ولم يفكر حتى مصاصو دماء العانسـات في اسـتغلالها، أو استغلال ما كنزته خلال أعوام التوظيف الطويلة..

من المؤلم ألاّ يفكر أحد في استغلالها باسم الزواج، رغم أنها حاولت أن تكون عرضة للاسـتغلال، لقد عرضت نفسـها من وراء حجـاب، وبواسـطة وبدونهـا، عرضت على الشـريف الهرم، وعلى الحقير المستغل الذي تستكثر عليه شربة ماء..

لولا هذا الشيء الذي في صدرها، هذا الذي يشبه خرير الماء وهديل الحمام.. إنه يقضّ مضجعها، ويتراءى لها في كل اتجاه، في نومها ويقظتها وعملها وسـكونها، وفي كل مشـاهد الحياة حولها.. لولاه ما سلكت أي درب..

هذا الكائن الذي يسمى طفلاً، كائن يناديك: ماما، ويستلقي في حجرك، ويمد يديه إلى عنقك ليضمك فتضم الدنيا بأكملها، طفل.. هـذا مـا تتمنـاه من الحياة كلها، أن تحمل طفلاً في رحمها، ولا يهم من صلب من هو..

قد تكون دروب الحياة، واختياراتها أقسـى مما نتخيل، ونحن الذين يملأ الضجيج مشاعرنا، فلا نقف قليلاً كي نتساءل، وظروف الحياة هي المشجب الذي نعلق خطايانا عليه حين نخطئ.

ولقد قررت أن تخطئ، وأعدت للأمر عدته.. أعدت كل شيء

بروية كي تحصد ثمرة هذا الخطأ، الذي لم يعد عندها خطأً، بل أصبح حقاً في الحياة، والحل الوحيد، وأمراً لا بد منه.

لقد استولت عليها رغبة مُلحّة أفسدت نعمة العقل لديها.. المسكينة، لم يحالفها الحظ في هذه الحياة بشيء حسن ابتداءً بحظ سيئ، ووجه يعد سيئاً، وكل شيء في حياتها سيئ، ماعدا شيئاً واحداً كان حسناً؛ إنه زوجة الأخ المغترب بعيداً..

هي الإنسان الوحيد الحسن الذي وقف إلى جانبها في خطيئتها أو محنتها. وكان الأمر كما خططت له، لقد حملت سفاحاً..

وحين بدأت بطنها في الاستدارة؛ تركت العمل، وتوارت عن الأنظار. كان حملاً قاسياً، والأقسى منه أن تخفي أعراضه، وأن تكون في نظر الجميع مريضة دائماً.

أما زوجة أخيها فأخبرت الجيران والأحباب أنها سافرت عند جدتها في القرية لعل صحتها المتدهورة تتحسن بفعل هواء الريف..

شهور الحمل طويلة، قاسية الألم، مملة الانتظار، وليست مملة؛ فكل حركة يقوم بها الطفل كانت حياة جديدة لها، وكل يوم هو اقتراب أكثر من أروع الأشياء في الكون..

وأخيراً أتى اليوم الموعود، كان مخاضاً مريعاً، العذاب فيه لا يوصف..

وحدهما بلا طبيبة أو ممرضة، بلا خبرة لدى كلتيهما، ولكن بكل الأمل في نفسها، أتى «وحيد» إلى الدنيا يتيماً بلا أب، وأتى معه أخطر جزء في المخطط المأساوي.

عليها أن تذهب بنفسها إلى مسجد النساء، وأن تضع بأناملها هي حياتها المكلومة على درج المسجد، واختارت صلاة الفجر؛

فالنسوة الموجودات وقتها عجائز، كما لا توجد مرتادات كثيرات .

عليها فقط أن تضعه هي، وأن تجده هي أولاً، وأن تتبناه هي، ولا تترك أحداً سواها يأخذه..

وبخطىً متعثرة لا تكاد تحملها قدماها اجتازت درجات درج المسجد الثلاث..

النساء تتوافد للصلاة، خشيت أن تلمحها إحداهن وهي تحمل المولود، تخشى أن يكشف أمرها وهي المرأة المحترمة في مجتمعها، وكل نساء الحي يكبرنها ويُقدّرن عقلها..

حملته بأنامل فؤادها الملتاع، وهمّت أن تضمه إلى صدرها لولا أن سمعت أصوات الحاجة أم محمد ونسوة أبنائها خلفها، فأنزلته على عجل، ووقفت ملتاعةً كلوح من الثلج، وقد تبخر كل ما أعدته من حديث وكلمات..

هرعت أم محمد على صوت المولود الذي صرخ باكياً حال وضعه على الأرض، وحملته المرأة وهي تحوقل، قائلةً:

- ما هذا أيتها الأستاذة؟ ماذا وجدت.. طفل؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله، منذ متى هو هنا في هذا الجو البارد؟

لم ترد كأنها شلت أو فقدت النطق..

عادت أم محمد تهتف وتصيح:

- ماذا حدث في الدنيا؟ لعن الله أماً تترك فلذة كبدها في برد الليل، يعصين الله، ثم يلقين أولادهن في قارعة الطريق.

لم ترد، ولم تنبس ببنت شفة، كأنها في بُعدٍ آخر، فقط ترى وتسمع..

تجمعت النسوة، وأخذت كل واحدة تدلو بدلوها، وتلعن الأم

الخاطئة التي لا تعرف الله، ولا تعرف قدر الأمومة.

أما هيَ فقد وقفت صامتةً لا ترد أو تشارك معهنّ، لم يكن كل هذا الكلام في مخططها، لا تدري: من...؟ كيف...؟ لماذا...؟ متى...؟

اتفقت النساء على أن تأخذه أم محمد؛ فقد سبق أن فعلت ذلك، وهم بيت خير وأناس صالحون..

لسانها المتحجر تحرك ولونها الممتقع صار بلا لون، مدت يديها كأنها ستغرق، وبصوت لا تعرفه هتفت منهوكة القوى:

- لا، لا، يا حاجة أم محمد، دعيه لي أرجوك.. واختنقت كل العبارات المعدة سلفاً..

صاحت النسوة جميعاً في آنٍ واحدٍ، وفي لغطٍ أصابها بالفراغ:

- لا، لا، أنتِ موظفة، لا تقدرين على ذلك، تعيشين في بيت أخيك، أنت عزباء لا خبرة لكِ، ثم أنكِ مريضة منذ شهور وقد تدهورت صحتكِ كثيراً، ولا حليب في صدركِ يا أستاذة، لا خبرة لك... لا تقدرين.. لا..... لا....، وأخذن الصبيّ، وانصرفن..

وقفت هناك على أعتاب درج المسجد مشلولة الإدراك تماماً، لا تعي حقيقة ماذا يجري؟

وبدأ سيلٌ من الدم يتدفق من بين ساقيها، وسيول أكثر غزارةً تنهمر من عينيها دموعاً حارة.

وقفت منهكةً، معذبةً لا تستوعب ماذا يحدث.. مدت كلتا يديها كأنها تريد أن تقاتل أو تموت، وقبل أن تسقط أرضاً حملتها زوجة أخيها، وهي تحاول أن تخفي خيط الدم خلفهما..

ومع شـروق الشـمس فاضت روح الأسـتاذة القديرة إثر نزيفٍ دمويٍّ حادٍ.

لم يعلم أحدٌ أنها كانت تعاني نزيف امرأةٍ نفساء، أو أنها ماتت ربما حزناً وحسرة.

قلب أم

ظلت نظراتها القلقة تتنقل بين الأجساد الساكنة لأطفالها الصغار وبين عينيه البريئتين والمستوحشتين.. كان يرفض أن يسلم جفنيه للنعاس أو يضع جسده الصغير مع تلك الأجساد الأخرى..

لقد صنعت معه كل ما تصنعه أم لصغيرها، ألبسته ثياباً جافة بعد أن بلل المطر ملابسه، وأطعمته بيديها بحنانٍ مبالغٍ فيه وسقته ما يرغب به كل طفل من المشروبات، ودلّلته دلالاً لا تحسنه كثيراً مع صغارها.. لكنه كان يفتقد أمه منذ أن وصل إلى منزلهم. تنهدت وهي ترى جفنيه يسقطان ليحجبا نظراته الحزينة، أسندته ببطء كي يمدد جسده بجوار الأجساد النائمة، لكنه انتصب مجدداً ونظرات الخوف تلتمع في عينيه وهو يهتف:

- لا.. لا أريد أن أنام، أريد أمي.. زفرت مكررةً عبارتها عشرات المرات:
- نم يا حبيبي، ماما ستأتي في الصباح وسأ.... وصمتت، قطع خرافتها نداء رجل يأتي من الشارع عبر مكبر للصوت، كان يصف طفلاً في الرابعة تاه عن أهله ظهر اليوم.. غاب صوت الرجل مع السيارة.

همس ابنها الأكبر بحماسةٍ وهو يبرز رأسه من تحت الغطاء:

- إنها أمّه، إنها أم الصبي يا أمي.. أجابت الأم وهي تتجه نحو حجرة الأب:

- نعم، إنهم يبحثون عنه بالإعلان عن فقده..

دلفت إلى الحجرة وهي تقدم رِجلاً وتؤخر أخرى، تعرف طباع زوجها القاسية، لقد رفض أن يبحث عن أهل الصبي منذ وجده عصر اليوم، بل أحضره إلى منزلهم قائلاً:

- أن أرادوه سيبحثون عنه.. امتدت يدها تهز زوجها النائم برفق هامسة:

أبا أحمد.. استيقظ يا أبا أحمد.. قم حفظك الله.. فتح عينيه المحمرتين وهو ينتفض:

- ما بك يا امرأة؟ لماذا توقظينني وما زال الوقت ليلاً؟ ألم أقل لك ألف مرة أني بحاجة إلى الراحة بعد الكد طوال اليوم؟

هل تظنين أني سأفتح عيني ظهر الغد لأكون مديراً على أحد المكاتب أخط بعض الأوراق، لا أيتها المرأة القاسية، سأستيقظ فجراً لأحمل على كتفي الأحجار والأخشاب، لذا لا تزعجيني فمن أجل من أعمل يا ترى؟ أليس من أجلك أنت والأولاد..

تنهدت.. إنها تحفظ مقطوعته عن ظهر قلب لتكراره إياها في كل مناسبة أو حتى دون مناسبة. حتى الأطفال حفظوها وصارت دعابتهم المفضلة، لكن ليس هذا هو المهم والذي أرغمت نفسها على سماع المقطوعة من أجله بل الصبي الصغير.. همست بوجل:

- يا أبا أحمد، أهل الصبي يطوفون الشوارع بسيارة يبحثون عن طفلهم. لو خرجت وأشرت إليهم لكي.. ومرق الصوت من جديد من خلال مكبر الصوت يناشد ذوي القلوب الرحيمة، فأصرت عليه هاتفةً:
- قم يا أبا أحمد لقد عادوا من جديد.. قم وأكمل الخير الذي بدأته..

لكنه فاجأها حين غطى رأسه باللحاف جيداً وهو يقول:

- لا داعي لذلك.. الطفل ليس في العراء، إنه في بيته الثاني، في الصباح سنرى الأمر..

صدمت المرأة الوالهة، وهتفت:

- لكن يا أبا أحمد، أم الصبي لعلها قد جنت.. ارحم قلب الأم أرجوك، لو كان الوقت مبكراً كنت خرجت بنفسي، لكن الليل قد انتصف يا أبا أحمد..

جاء صوته واهناً فقد عاد إلى النوم مجدداً بكل هدوء:

- حسناً دعي هذه المرأة المهملة تأخذ درساً في الاهتمام بأطفالها، نامي يا امرأة واتركيني أنام، لن أستيقظ في الظهر لأجد نفسي مديراً على أحد المكاتب أخط بعض الأوراق، لا أيتها المرأة القاسية سأستيقظ فجراً لكي أحمل على كتفي.....

وخرجت من حجرته.. لقد ملّت قسوته كما ملت عبارته السخيفة التي يكررها كشريط كاسيت منقرض.. انتابتها الحيرة فأخذت تحدث نفسها وهي تسير في البيت بلا هدف:

- آه يا إلهي ماذا أفعل.. مسكينة أم هذا الصبي لربما جنت

حزناً وهلعاً وهي لا تدري أين طفلها، ربما تعتقد أنه ملقىً هناك على أحد الأرصفة أو افترسته وحوش البشر أو الكلاب الضالة.. يجب أن أجد حلاً..

الطفل ما زال متيقظاً كما ظنت فهو يشعر بالوحشة من غرابة المكان عنه.. كان ابنها الأكبر أحمد يحاول إقناعه بالنوم في فراشه الوثير ويغريه بالقفز على الفراش حيناً أو التمدد حيناً آخر..

وخطرت الفكرة لها، إنه أحمد ابنها الأحب إلى قلبها، لقد أصبح في الحادية عشرة وقادر على تصرف سهل كهذا.. هم سيمرون مرةً أخرى ومنزلهم يقع قرب الشارع وهي ستراقبه من النافذة، لن يحدث له مكروه.

وما دامت تساعد أماً أخرى؛ سيعود ولدها إليها سالماً.. هي تثق بقدر الله..

اختلط طنين في أذنيها بدقات قلبها الوجلة وهي تشرح لولدها المتحمس ما عليه صنعه، تحاول طمأنة نفسها القلقة ليس إلاّ.. لقد أحسّ أحمد أنه رجل يعتمد عليه، وأن أمه تثق في حسن تصرفه لذا بالغ في طمأنتها وجعل إحضار أهل الصبي قضيته التي من أجلها خلق، كان متحمساً للغاية.

خرج عبر باب الدار لتلفحه برودة جوّ الليل الساكن ويبتلع الصمت خطواته، وكانت عينا الأم ترمق جسده النحيل المدثر وهو يقف في الشارع المواجه ومرّ الوقت وعيناها لا ترفان حتى لا يغيب الابن عن ناظريها.

انطفأ مصباح الشارع.. وقفز قلب الأم، لقد تاه عن ذاكرتها أن هذا المصباح اللعين ينطفئ ليعود يضيئ كل فترة.. وأضاء

المصباح مجدداً لكن ذلك الجسد الصغير لم يكن هناك، لقد اختفى.. جحظت عينا الأم وفتحت النافذة على مصراعيها وتدلّت بنصف جسدها الأعلى تحاول اختراق الظلمة ببصرها، لكنه كان قد اختفى.. صرخت بعلوٍّ صوتها تهتف في لوعة:

– أحمد.. أحمد... وابتلع الليل صدى الصوت..

صديقي الشاي

كانت مظلمةً بلا شمس فقد أغلقت نوافذها والآن فقط تتساءل لمن تشرق الشمس بعد انطفاء..؟ هل آن الأوان أن تسكب عبرات الاختناق وتبوح كي توجع القدر كما أوجعها..

أطرقت.. تطوق الكوب بأناملها وقالت:

يا صديقي.. إن بي رغبة عارمة في جنون البوح، وحزن كظيم، وقطرات دمع عالقة في أهدابي ولكني سأغني.. أعطني الناي أو كوب شاي..

لا أروع من معانقة كوب من الشاي الساخن وتقبيله مع كل رشفةٍ سواءً في حالات المزاج الصعب أو المنفرج، لن أرهق نفسي الذائبة كالسكر في كوب الشاي..

لماذا أنا هكذا..؟ أو حتى لماذا أحب الشاي..؟

أنا لن أعصف ذهني في حيرة كوني أنا لم أخلق نفسي، أو حتى أختار أنا..

لكني أعرف يقيناً في ما لا مجال فيه للشك أو الريبة أني فتاة صالحة يوشك أن ينقضي عمرها.. فكثيراً ما أرى نفسي أشنق نفسي بجدائل شعري، لذلك أقصها، ومنذ أعوامٍ كثيرة كلما طالت زففتها للمقص فاستباح جمالها وبعثرها حول المقعد وأنا أرنو إليها في انعتاق مودعة..

أما قصة عشقي للشاي فهي غامضة.. ربما وأنا صغيرة اجتاحني

البـرد وطوقنـي وحيـدة، وغرس بين شـفتي قبلته البـاردة.. ما زالت عالقة هناك.. تطلب الشـاي سـاخناً؛ كي تدفئ أوصالها.. أقول ربما ما زال فيّ جنون البوح..

وأنا طفلةٌ صغيرة، عانيت الخوف، كنت أخشى أن يخنق أنفاسي قلب محب؛ لأني دون أن أدري بدأت أن أكون.. أنا.. وكون الحب أسـوار تضرب حولنا، كانت أسـواري شـاهقة، كنت أخاف الظلام وأنفاس أمي حتى أنام...

يبدو أن عذابي سـيطول.. هل هناك أروع من شـاي بالنعناع.. لا ألمح في الكوب ظل عيوني، والقطرات المالحة حين تغوص في قلب الشاي تصبح دموعاً حلوةً بالنعناع..

وأنا جالسة أفكر سقطت بعض الأفكار فالتفت جدائل شعري حولها تعتصرها حتى سكنت.. هل أبوح بقصتي مع صديقي الخيال..

أنا لا أحب أن أدمن صداقة الخيال فقد يخونني خيالي ويحلم بظل طيف بعيد يسـحق الأمنيات على صدري وتسـتحيل إلى جمر وقودهـا أنـا، لـذا لا أعاشـر هذا الخيال أو نجلـس على مقعد واحد نفكر..

ربمـا يفكـر هذا المتمـرد أثناء نومي، يغافلني ويسـتلّ أصابعي ويرسم طريقاً وعراً أصعده بمفردي، فتتقطع أنفاسي شوقاً، وأستيقظ في الصباح أتمنى كوب شاي يلملم بعثرتي..

اليوم اسـتيقظت وقد نسـيت من أنا.. ففي منامي استرقّ خيالي بعض حواسـي وسـاقها في شـعابٍ مهلكةٍ لا يُقاد فيها سـوى الرقيق الأشقياء، أضاع أجزاء جميلة مني فلم أعرف من أنا.

تحسسـت تجويف صدري.. لقد فقدت شـيئاً مهماً هنا.. أين

كوب الشاي يروي هذا الظمأ؟ فقط كي أعرف من أنا...

نفضت عني غطائي الذي لفّ تفكيري في لحظة وهم مغرقة، وهرعت صوب صديقة نضجي المبكر أبحث فيها عن وجه أعرفه..

هالني أني وجدت زهرة عبيرها تفوح، إنما عمر الزهور قصير، زهرة قُطفت مبكراً فاعتراها الذبول، تتشبث بالأحلام، تخشى العمر أن يضيع..

سأحاول في مستقبل أيامي أن أتعايش مع هذه التي لست أدري من؟ سأصنع في تجويف صدري قبراً، ولن أفتقد ذلك الشيء المهم؛ فقد جربت الفقد، وأدركت أنه يشبه القبور..

أحياناً أفكر: ذاك الذي ضاع من تجويف صدري، كان شهيداً مغدوراً ضاع من أجل خيال عابث لا مسؤول.. أبداً لن يجد صدراً يحتويه أو حتى يدرك أي غربة تنتظره.

رفعت جبينها تتأمل السكينة حولها إلاّ من صوتها المبحوح وقالت:

– ماذا يا صديقي.. أتراني أخيط الجرح على السم..؟

ارتسمت على صفحة الكوب شهقة، وارتعشت أناملها:

– لا بأس.. أنت تعرف أن هذه أنا..

من حقي أن أتألم

كلما مر في ذاكرتها ذلك الموقف الموجع انتفض جسدها ألماً كأنما تعرض للارتطام من جديد، لن تنسى ذلك الصباح الذي أفقد كل الصباحات جمالها..

كانت تمضي في طريقها المعتاد، والراحة تغمر ملامحها خلف نقابها الأسود، لقد أنجزت عملاً آخر يبعث السعادة في قلبها... إنها أعمالها الخاصة والصغيرة.

وقفت كي تعبر الشارع للجهة المقابلة كي تستقل الباص عائدةً إلى البيت، ولم يكن هذا الجزء من الشارع مزدحماً لذا وقف أحد الباصات مشيراً لها كي تمر ومرت..

فجأةً.. برزت تلك الدراجة النارية كأنها سهم شيطاني مرق من جعبة القدر، للحظة عابرة لم تكن لتصدق أنه قد يحدث ارتطام، فكرت في نفسها أن الدراجات النارية تنزلق فجأةً وبسهولةٍ في أي اتجاه، إلاّ أن الارتطام كان قوياً ومرعباً لم تسمع فيه سوى صدى صرختها المرتاعة، ولم تشعر بنفسها تكاد تصل إلى الأرض الإسفلتية حتى انتصبت واقفة، كأنها طابة صغيرة من البلاستيك قد ارتدت بفعل الارتطام القوي...

وقفت بسرعةٍ أذهلتها فلم تتذكر كيف كان سقوطها، لم تشعر بشيء سوى الخوف والحياء، تخشى أن يراها أحد ممددةً على الأرض أو أن ينتبه أيُّ مخلوق لمصيبتها فتمتد الأيدي نحو جسدها

مهما كان ألم هذا الجسد.

رفعت حقيبتها اليدوية وهي تلهث بالشكر والحمد لله أن سلّمها، أنها لم تمت على الطريق أو تفقد الوعي أو تتكسر كفخار قديم هشّ يتبعثر حول نفسه أمام أعين الفضوليين، وكان الأولى أن يختفي عن العيون، جالت بنظراتها ترصد من قد يكون قد شهد هذا الألم الشخصي..

توقف صاحب الدراجة، ونظرةٌ بلهاء تطفو على ملامحه لا يدري ما التصرف المطلوب منه، المصابة امرأة، وامرأة تريد أن تفر بمصيبتها فلم تلتفت نحوه مطلقاً كأنها الجانية، أوقفت أحد الباصات في الشارع المقابل وصعدت ترتجف كورقة خريفٍ في متناول شلال يصب بقسوة ومداومة، لحقها الرجل لا يدري ما العمل، الضربة قوية والمرأة تبدو أقوى... سألها:

- متأكدة أنك بخير.. أجابت: الحمد لله، خير إن شاء الله أنا بخير، كأنها مذنبة تفر من وجه العدالة، كانت تهرب من مكان سقوطها، سعيدةً أن كل من في الباص لم يلاحظوا أن هذه الإنسانة لتوّها تعرضت لحادث مؤلم.

طوال الطريق إلى المنزل كانت تلهج بالشكر لله أنها لم تصب بكسور تعيق حركتها أو يتهشم رأسها على الإسفلت أو يتشوه وجهها، إن كل ما يهمها ألاّ يعلم أحد بمصيبتها، أن تعود إلى منزلها على قدميها هو أقصى ما تتمنى.

ماذا لو علم زوجها والذي خرجت دون إبلاغه بخروجها، وماذا لو علم إخوتها كيف يكون رد فعلهم الغاضب؟

إنها تحيا في مجتمع يرى المرأة عورة، شيء لا يجب أن

يظهـر فـي موقـف محرج ومخزٍ، أو أن تتعرض لأي شـيء يتعرض لـه الرجـال.. إنهـا إمـرأة، مكانهـا البيت وليس المـوت على قارعة الطريق..

وابتسمت وهي تتذكر إحدى صديقاتها عندما تعرضت لحادث مشابه وإن كان طفيفاً؛ لقد دعت تلك المرأة يومها:

- يـا رب اسـترني واجعلنـي أموت في بيتـي، يومها ضحكت وقالت للمرأة المذعورة:
- ما الفرق؟ كله موت تحت العربة أو في البيت... الآن تعرف أن هناك فرق مؤسف..

تخيلت زوجها يصرخ لو علم بالأمر:

- أصدمتك دراجة!.. ماذا يقول عنا الناس؟ زوجة فلان تنبطح على الأرض ويراها الناس في هذا الوضع المزري. تريدين فضحنا، هذا لأنك تتركين بيتك وتخرجين بدون إذن مني، ألا تعرفيـن أن بيتـك هـو دنياك وآخرتك، والمرأة لا تخرج من بيتها إلاّ إلى قبرها.

وكيـف لهـا أن تقاضـي هـذا الذي صدر الخطـأ من قِبله، وهي مجرد امرأةٍ لا حق لها في رفع صوتها أو حتى البوح بما حدث لها.

تنهدت.. لهذا يجب ألاّ يعلم أحدٌ بألمها.. وعلى ذكر الألم بدأ وخـز مؤلـم يصـل إلى وعيها.. إن سـاقها تؤلمها وذراعها بل نصف جسـدها أشـبه بالمخـدر إلاّ مـن لهيـب محرق يشـعرها بوجود هذا النصف.

وصلـت أخيـراً إلـى البيت.. ومـا كادت تصل لولا الخوف ألاّ تصل.. دخلت بسـرعة تتفقد جسـدها المرتجف كان التورم قد بدأ

بالانتشار وذلك اللون الأزرق المشوب بالسواد يظهر تفاصيله على فخذها وبطنها.

شكرت الله أن تلك الكدمات المريعة غير ظاهرة للعيان ويمكن إخفاؤها بالملابس، وتحت تأثير الخدر العجيب بدأت بإعداد وجبة الغداء لزوجها والأطفال حتى عودتهم من المدارس.

لكـن الألـم بـدأ يثقـل حركاتها فبالكاد ترفع ذراعها الأيسـر أو تتمكن من مد سـاقها اليسـرى في خطوها، ولهيب يتصاعد ليحرق فخذها وساعدها.

فقـط.. تمنـت أن تبكـي أو تصـرخ مـن الألـم أو تشـكو ألمها لشخص ما يربت على جسدها المرتجف، شخص يضمها إلى صدره بحنان ويواسيها..

حيـن عـاد الزوج والأولاد لم يلاحظ أحدهم الوجه الشـاحب والحـركات الثقيلـة المتباطئـة وغيـر المعتادة منهـا، أو يلاحظ تلك الابتسامة الواهنة المعذبة، ورغم أن هذا مؤلم أكثر إلاّ أنها ارتاحت أنهم لم يشعروا بتغيرها.

في دخيلة نفسها تمنت أن يسألها شخص ما: هل أنت بخير، أو لماذا تبدين متعبة هكذا؟ أو يقترح أحدهم أن تريح ظهرها المكدود على أحد المساند وتترك عمل البيت.

ظلت تعمل بصمت، تخشى أن تتأوّه ألماً كلما قفز عليها أحد الصغار مداعباً، تعض شفتها بصمت وجسدها يتفتت، كان يوماً ثقيلا فمتى يرحل هذا النهار لينطوي ثقله عن جسدها؟

وحين أتى المساء استلقت بجوار زوجها منهكة حتى التشبع، حتـى عناقـه كان مؤلمـاً.. حمـدت الله أن الظلام يسـتر كدماتها التي

تـزداد قتامـةً واسـوداداً، وفكـرت أنّ غداً يأتي يـومٌ آخر مليء بالألم الصامـت يسـوق وراءه أيامـاً أخـرى دون أن تجـرؤ علـى الكلام أو الألم، تبسمت في الظلام:

يا للهوان.. أهذا ما قد يتمناه إنسـان في وضعها – أو بالأصح امرأة – أن يصبح جلّ ما تتمناه أن تتألم بصوت مسـموع، أن يشـعر من حولها أنها تتألم حين تصاب بالألم..

زفرت من خلال الدموع: يا الله... من حقي أن أتألم..

ذكرى عذبة

حقيقـةً.. لا يوجـد صمـت حتى في هـدأة الليل، لم يكن هناك سوى أنغام السكون الخافتة ودقات الساعة التي تمنى أن يطلق عليها رصاصـة صمـت، وصـوت محاولة ابتلاعه لغصـة الذكرى، حقاً لا صمت وقت السحر.

ستطالك أصوات أفكارك المختنقة وهي تعيد عليك في إلحاحٍ كئيب حواراتٍ قيلت وأخرى افتراضية في خيالك الحزين..

ستشـنق راحتك علناً وهي تضع لك فخاخ الذكريات كي تقع متعثراً بأحزانك وبمذاقٍ لذكرى قريبة تلوح كقطعة سكر صلبة عالقة في حلق خيالك..

ستسـحبك دوّامة شـفقتك على نفسـك بعد أن أصبت بمرض الغباء دون أن تلاحظ أعراضه في لهفتك ومحاولتك ابتلاع جرعات الذكريات المُلحّة..

أفكاره تزداد وحشةً وحِدةً كلما بدأ شيءٌ خفيّ في عقلِه بنبش أماكن مخفية قسرياً عن متناول رغبته في التذكر..

لا فائـدة مـن اجتـرار الذكريـات الشـهية من قِبل شـخص قرر الصيام عن التذكر وانتهج التصوف عن الأماني والأحلام، لا فائدة من تعذيب الحواس بتقريب ما اختفى من بين إدراكها وقربها، وصار في لحظة جبارة من القدر شيئاً أبعد من كوكب في مجرة لم تكتشف بعد..

لكنّها الذكريات تلح كغذاءٍ ضروريّ لاستمرار حياة الروح التوّاقة لرائحة الماضي العذب، أو تلح كموتٍ قادم يسحق السكينة في رعب..

كانا صوتين يتصارعان في داخل الرجل، حتى أضجره هذا الداخل، وتمنى أن يرميه خارجاً من داخله، حاول أن يشغلهما بذكرى أخرى لا تؤرقه، فراح ينقب في رصيد ذكرياته عن شيء مُغرٍ..

هذه الذكريات تفعل في جسده وروحه فعل الخمرة، يعقبها جلد السياط كحد نافذ لتعاطيه خمر الذكريات المُسكر..

أدرك صوته الحزين صوتا ثالثاً يضاف إلى حيرته.. صوتا منهكاً يتساءل: لماذا لا نحذف من ذاكراتنا أجزاء مشتعلة تحرق شريط الذكريات كفيروس مدمر..؟ لماذا لا توجد سلّة للمهملات في هذا الرأس غير قابلة للاستعادة تحت أي ظرف؟

لماذا هذان الصوتان يخدعانه ويجرانه لنقاش هو لا يحتمل الخوض فيه، هذه الذكريات تأخذه بعيداً كموجةٍ هادرةٍ يرتعش لها جسده وتنتفض لها روحه في حنين لا يطيقه، يخشى أن يصارح نفسه بشك ينتابه حول حدوثها في نومه أو في فترة من صحيانه..

لا شيء يؤكد له أن شيئاً من هذا حدث فعلاً، كما أنه لا يوجد ما ينفي هذا الحدوث..

يفرك جبينه المقطّب الممتلئ بتقطيبات كثيرة كرموز بدائية لأحداث حياته العظيمة.. إنه يستشعرها بأنامله كلما تعمق في فركها.

كثيرة هي الذكريات المتعفنة في أسفل طبقات ذاكرته، كثيرة هي حتى ينسى هذه الذكرى التي لا يريد أن يناقشها مع نفسه..

إنه يخشى خوض غمار التذكر وطرق مجاهله الغامضة، يخشى أن هذه الذكريات كانت حلماً علق في ذاكرته واستيقظ في الصباح نشيطاً كحقيقة وليس حلماً فقط..

توقف مبهور الأنفاس.. هي ذكرى أقرب للحلم.. أو حلم يتذكر تفاصيله كحقيقة.. ليته يملك الشجاعة للحديث مع نفسه.. ربما تهدأ هذه النفس قليلاً..

كأنه واقف في منحدرٍ شاهق أقرب للسماء وأقرب للانزلاق.. حينها انسكبت بين يديه أشعة القمر الفضية، وطوقت خديه براحتيها، كأنه شرب من ذلك اللجين المُسكر، كان يرشفه مرةً بعد أخرى باسم الوداع وكان له مذاق السحر.. كأن السماء كان لها صدر وقلب وقد أحبته حتى الثمالة..

ها هو عاجز عن التفريق بين المعقول واللامعقول، اختلطت أحلامه بأوهامه، وأصبحت مزيجاً من الحقيقة والخيال، يتجرعها فيثمل ويتركها فيقتله الإدمان.. غلبه النوم وهو يصارع أفكاره وحيداً.

* * *

حين أفاق ظهراً قهره الضوء، فاستوى جالساً يحدق إلى النافذة كأنها صديقة خائنة أدخلت الأعداء فجأة وقت راحته كي يغتالوا نومه المتقطع، كان منهكاً ومتعباً، ومشوشاً كأنه كان في معركة وليس متحصناً بساعات النوم والهجوع.

لماذا يأتي الصباح دوماً محملاً بالشوق والحنين؟ لماذا يفتقد وجودها في فراش ليس لها؟ ولم يكن ولن يكون؟

هل جمعتهما تلك الذكرى حقيقةً؟

(أنا هنا).. فهل كانت هناك حقاً وكيف أتى بها الحلم وكيف

أخفاها؟ هل كان المربع الصغير المعلق بين السماء والأرض كافياً للّقاء والوداع والبكاء للأبد؟

ما زال دفء راحتيها على خديه وكلمة الوداع خنجراً عالقاً في صدرها رفض اقتلاعه كلما استجدته قال لا.. لا.. كيف لا، وكيف يطيب العيش من دونه؟

لكن قلبه تصخر مثل الصخور في الجبال الشاهقة لا يعانقها سوى الجليد.

كم طناً من النسيان عليه أن يستهلك؟ لقد أحبها يوماً واشتهاها كثمرة ناضجة قطفها غيره قبل دهر حين كانت مجرد زهرة ضعيفة، وكانت تجحد كل ما حولها وتراه إله أولمب.

انتفض في صمود، لا مزيد من النقاش مع ذكريات تتسلل في خداع، ليس هو من يقتات الخيال – غذاء روحها المفضل – سينسى.. أمثاله ينسون مذاق الحزن والفرح وضغط الشوق والحنين على حد سواء.

تجاربه في الحياة أصبح مصلها الواقي غزيراً في عروقه، أصبح يختار نهايات محطات حياته وقت شاء، ولقد اختار ألاّ يخوض هذا البحر مرة أخرى..

ولتغرق هي..

حكاية أسيرة

في تلك السـاعة الأخيرة من النهار قبل أن تتوجه الشـمس إلى عالـم أكثـر وعيـاً وحبوراً، كان بعض رجـال القرية يقفون في جرين القريـة الواسـع حيـث يفصـل الحب عن القش في مواسـم الحصاد السـنوية، كانوا يقفون في صمت لا تعرفه النسـاء في هكذا مواقف، يقفون في إجلالٍ لهذه المناسبة الجميلة.

حتى نسـوة القرية شـهدن هذه المناسبة المميزة باهتمامٍ خاص لا يخلو من الثرثرة المتواصلة في تحليل المشهد أمامهن بكل انعدام ضمير أو حيادية؛ كشأن كل نساء الأرض.

العجائز وكبار السـن في الأبواب وعلى مشـارف الجرين، أما الشابات وصغيرات السن فقد كن يتابعن الحدث من النوافذ وسقوف المنازل المهترئة.

خروج العروس من دار أبيها في زفة تقليدية كان حدثاً جميلاً تشـهده القريـة دائمـاً بفرح فائض ومعتاد، لكـن هذه العروس كانت مختلفة قليلاً والزفة أيضاً، مثلها مثل التوقيت المبكر لخروجها من منزل أبيها.

فقـد اعتـادت العروس في بيئتنا اليمنية على الخروج إلى منزل زوجها بعد غروب الشـمس كي تشـرق شمسـاً جديدة في دار هذا الزوج.

وشـيء آخر مختلف في هذه المناسـبة؛ فقد أتى الأستاذ أحمد

وهو العروس ليصطحب عروسه من منزل أهلها بنفسه، وهذا ما لم تعتده بيئة القرية فالعروس هي من تزف إلى منزل الزوجية والرجل هو من يكون في انتظارها، لذا فقد كانت هذه المناسبة مميزةً من وجوه كثيرة جعلت القرية تصبح شبه حاضرة في مراسم الزفاف.

وما هي إلاّ لحظات من وصول الأستاذ أحمد ومعه بعض أقاربه، ووقوفهم للقيام بمراسم الاستقبال المعروفة من أهل العروس حتى خرج والد العروس وهو يحملها بين ذراعيه من داخل الدار.

يحملها برفق محاولاً ألاّ يطأ بقدمه ذيل فستانها الذي تدلى من تحت الشرشف، كانت تضع ساعديها على صدرها وملامح وجهها تختفي تحت المقرمة السوداء التي أسدلت على وجهها حتى لا يراها الغرباء.

تبدو كطفلة صغيرة تتناقلها الأذرع لعجزها عن المشي فقد كانت مشلولة. أسلمها والدها لذراعي زوجها بتأنّ شديد كمن يودع ثمرة قلبه مكاناً أميناً.

رفعها الزوج إلى صدره واضعاً ذراعه اليمني تحت ساقيها وذراعه الأيسر تحت ظهرها رفعها بحرص كجوهرة ثمينة.

ورفعت العروس ذراعيها وطوقت عنق الزوج كأمانة حتى آخر العمر، فشهقت النوافذ والسقوف بالنسوة وزاد لغط التعاطف والدهشة والانبهار، وأطرق الرجال رؤوسهم في خجل، إنها أول ملامسة صريحة بين الزوجين أمام الخلق جميعاً.

لم يكن معتاداً في قريتنا أن يتقدم رجل كالأستاذ أحمد الشاب الوسيم المثقف ومعلم المدرسة المرموق للزواج من فتاة يطلق عليها لفظ الأسيرة؛ فقد كانت مشلولةً منذ كانت في الخامسة من

العمر بعد سـقوطها من سـقف دارهم، لقد أفقدها السـقوط الحركة تماماً وكذلك نمو ساقيها الطبيعي..

المحـاولات البدائيـة لطلـب الشـفاء محزنـةً أكثـر من شـللها المؤلم؛ فقد لجأ الأهل البسـطاء للطب المتاح في بيئة قروية فقيرة ومتخلفة ابتداءً من الأعشـاب والتدليك إلى الشـعوذة، وأخيراً قراءة آيات القرآن عليها من قبل الأستاذ أحمد الحافظ للقرآن.

لقد استخلص العقل القروي الجاهل أن سبب شلل بدرية هم الجن؛ لأنها باعتقادهم سـقطت من سـقف البيت على خلفة شيطان كما شخص ذلك أكثر من مداوٍ في القرى المنتشرة على جبل بعدان الأخضر المليء بالأرواح الشريرة والجن الطلقاء.

عشـر سـنوات من الشـلل النصفي كافية كي تتعود بدرية على زحفها المحرج على مؤخرتها ويديها أمام الآخرين كي تتعود على نظرات الشـفقة وعباراتها القاسـية من نسـاء القرية والأهل وكل من وقع بصره عليها، بل إنها سمعت عبارات أقسى من كلمات الشفقة مثـل قولهـم لهـا: الله يختـر لك ما فيه الخير؛ حيث سـاد الاعتقاد أن الخيـر لمثلهـا هـو الموت، فالفتاة في بيئة متخلفة تعتبر عاراً محرجاً حتى في مرضها إذا كان يجعلها عبئاً على نفسـها وعلى من حولها وهي العبء دوماً.

بدرية ابنة الخامسـة عشـرة تقبلت وضعها الطارئ على حياتها منـذ طفولتهـا كمـا تتقبـل الفتـاة اليمنية كل شـيء يقيدها باستسـلام وقناعة فهو قدرها ووضعها الذي اختاره الله لها كان قليلاً أو كثيراً.

لكنها ولأول مرة تشعر بالحرج لرؤية الأستاذ القارئ لها وهي تزحـف بتلـك الصـورة المحرجـة والمؤلمة، وما زادهـا حرجاً تلك

النظرة الحزينة المشفقة التي ارتسمت في عينيه حين طالعته ذلك الصباح في حجرة الجلوس؛ عندما أحضره والدها كحلّ جديد لمعالجتها من الجن الذين يحبسون حركتها.

حين جلست أمامه خافضة الرأس في حياء واستكانة، أمرها والدها أن ترفع النقاب عن وجهها فالأستاذ أحمد رجل مبروك ومن البيت فلا داعي للاحتجاب منه كما قال الأب الذي يأمل أن يكون الشفاء على يدي هذا الرجل متعدد المواهب فهو المعلم في القرية وهو الخطيب في المسجد وهو أيضاً المعالج بالقرآن لكثير من حالات السحر الغريبة التي تعتري أبناء القرية وقرى مجاورة.

الأستاذ أحمد فاجأه هذا الجمال الحزين للفتاة المقعدة وتلك الكلمات المتلعثمة التي خرجت من فمها وهي تقول:

«أنا ما بينيش جن يا أستاذ أحمد.. أنا ادربت من الجبا وكسرت حقوي مو دخل الجن بحالتي.. الله يستر عرضك».

آلمه هذا الجمال الزاحف في ضعف جسدي ونضوج عقلي افتقده الكثير، لكنه إكراماً لوالدها تجاهل كلامها كما هي العادة في تجاهل كلام النساء قليلات الفهم واللواتي يتحدثن في حضور الرجال بدون تحفظ أو احترام. مد يده ليضعها على رأسها ويبدأ في قراءة آيات مخصصة لمعرفة إن كانت مسكونة من العالم الآخر أم مسكونة من أفكار هذا العالم.

ظلت ساكنة وهادئة تعرف أنها بخير وأن هذا الرجل إن كان له علم بالقرآن حقاً فهو سيعرف وإلاّ فهو من أولئك المشعوذين الذي اعتادت على هلوساتهم وأكاذيبهم وسرقاتهم لمال أبيها.

انتهى الأستاذ من تلاوة القرآن ودعا لها بخير والتفت نحو والدها قائلاً:

- ابنتكم بخير يا حاج حسن، ولا فيها جن ولا هم يحزنون، كل ما فيها هو إصابة اعاقتها بعد ما سقطت من سقف البيت.

حملق الأب إلى الأستاذ كأنه لم يستوعب كلامه جيداً ثم خاطب ابنته قائلاً:

- «ادخلي لش داخل يا بدرية خلاص الأستاذ خلص».

زحفت بدرية بمشقة الحرج الكبير خارجةً من الغرفة وهي تدعو الله أن يختار لها ما فيه الخير، لم تكن تشعر بالحزن على نفسها مثل الآن.

في المساء سمعت أباها وأمها يتهامسان أن الأستاذ أحمد خطبها من أبيها ولقد وافق على ذلك وعلى الأم إخبار بدرية بهذا الزواج الذي لا تحلم به، وإعدادها للزواج من أفضل رجال القرية كلها.

المرأة الأخرى

تمنيتُ المواجهة بخلافها وخلافه، تمنيت أن أصبح مجرد امرأة في حياته وليس المرأة الأخرى؛ لقد كان لفظ المرأة الأخرى يطوق عنقي بتمييز كما تطوق أعناق الكلاب الضالة التي تبحث عن صاحب يقتنيها كي تسلي وحدته في شيخوخته..

لماذا قُدر لي أن أكون المرأة الأخرى ولم أكن المرأة الأولى في حياته؟

أنا هي من تستحق أن تكون الأولى والأخيرة في حياة هذا الرجل.. أنا هي التي تحبه أكثر من حب نفسه لنفسه..

كون القدر اختار الظهور الزمني لي متأخراً لا يعني أفضلية من تقدمت أو جدارتها العاطفية. لقد كان القدر يعبث بالوقت كي يحرز أكبر عددٍ من الضحايا ومحطمي القلوب.

يمارس أمتع هواياته في صنع الفجوات في مشاعر البشر وبعثرة أحاسيسهم؛ حتى يأتي ممتطياً صهوته القدرية ليضع المزيد من القلوب في الحيرة والعذاب..

القدر صانعُ ملاحم البشرِ البائسة بلا منازع، كلما حاولتُ تجسيد عدو انسجامي مع نفسي وجدته باسماً يعدني بمزيد من الشتاتِ والحيرة..

حقاً (نزار) ليس الرجل الوحيد بين الرجال، لكنه كان القدر، وكان قدري أن أحبه، وكان قدره أن يكون له زوجة أولى، وشاء

القـدر أيضـاً أن أكـون المـرأة الأخـرى في حياته، بل المـرأة الخفية الأخرى..

هذا الرجل نفخ فيّ الروح وغرس في أيامي حبّ الحياة؛ لأنه فيهـا فقـط، ولكنـه بجبروت المعشـوق نزع مـن قلبي كل حبّ ليس حبّه هو..

فماذا أفعل بحياة ليس فيها هذا الرجل ولا أكون في حياته حتى المرأة الأخرى..؟

مـاذا أفعـل وقـد ارتبـط وجوده بشـروق الشـمس وسـطوعها، وبسعادتي وشقائي، وحتى بملامح وجهي كيف تبدو به هو..؟

إني لفرط حبي له لا أرى له بين الرجال شبيهاً، فإذا وقع نظري على شبهٍ من ملامحه انقبضت أحشائي كأني أراه هو..

عندمـا ارتبـط بـي أو بمعنـى أكثر دقةً، ربط الحبّ بيننا كشـيء قهري مشـترك، كنت أنا أحمل هذا الحب كاحتياج حياتي، كالهواء الـذي أتنفسـه، كسـبب آخر لوجـودي، كلغة بقاءٍ هـي الوحيدة التي أجدتهـا، وإن كنـتُ عاجـزةً عـن التكهن كيف كان يشـعر هو عندما قرر أن نكون معاً؟

يخاف أن تصيب نصال الغيرة الأولى، فقط كي يكون مسـتقر هذه النصال قلبي أنا، كأنه يجب أن يكون مكانها الطبيعي قلبي أنا.. لا يمكن لقلب أن يعي مذاق الغيرة المحرق كالمرأة الأخرى، تلك التي لا يحق لها أن تغار..

لقد كنت لفرط غيرتي أراه حبيباً سرياً لكل نساء الدنيا، فكلما قالت أنثى أحب رجلاً حسبته هو، فكم من الحرائق أشعلتها الغيرة في أحشائي، وكان هو رجل إطفاء لتلك المرأة الأولى فقط.

كنتُ في قصتي معه في كل يومٍ كأم موسى، ترسل قلبها لليمّ وتظل كل الوقت فارغة الفؤاد وفؤاده ممتلئ بمن حوله.. بتلك الأولى وأبنائه.

كنت أتمنى المواجهة، فقط كي أخبرها أنني مثلها أحبه، وأنني مثلها أنثى تريده، وأنني لست سافلةً أو لصةً سرقت شيئاً يخصها أو حتى يخصه..

ماذا لو كنت مكانها وهي تحتلها غيرتي الآن؟ ماذا لو عاد لي كل مساء فيحيله إلى ضياء بوجوده؟ ماذا لو كنت أنا من تخلع ثيابه المبللة بالعرق وعلى مشجب أنفاسي أعلقها.. ماذا لو كان أول ما تراه عيني كل صباح إغفاءته على زندي..؟

ربما لأنني أشبه الحلوى في حياته فهو لا يريد لوزنه أن يزيد، وربما لأنه الأكسجين لي فرئتي تنقبض حين يغيب، كانت معادلةً صعبةً، فلم أكن الأهم ولكني كنت الأمتع.

وحين حدثت المواجهة.. تلك التي تمنيتها أنا ولم أسعَ لها أبداً.. حين حدثت تمنيت لو تحولت إلى لا شيء، إلى عدم، فحتى لو كنت بخار ماء كان هول الموقف وبرودته سيتكثفان في وقفتي المرتجفة لأتكسر في ضعف أمام صاحبة الحق..

تمنيت أن أدافع عن نفسي كلصة سرق قلبها هذا الرجل، تمنيت أن أوضح لها الحق المشترك في حجرات قلبه الأربع الفسيحة، وأن خاصية الرجل الغريبة في ابتلاع الحب كحصص منفصلة يمكنها أن تكفينا معاً..

تمنيت أن أكون أكثر جراءة، وأطالب بحق الحب الذي أحمله لهذا الرجل، هذا الحب الذي أذلني كثيراً، حتى تقبّلت نفسي وضعاً

كهذا أقف فيه عاريةً من كبرياء امرأة، فقط لأنها المرأة الأخرى..

نعم حبك أذلني كثيراً، لك قبل كل شيء. أذكر الآن كم أستجديك الرضا فلا أرى سوى اللامبالاة وشعور المتضجر من عقل امرأة أحبت أكثر مما ينبغي، الآن أشعر بفداحة خسارتي لنفسي أمامك أنت... وهي..

ظننتها ستنحاز بدافع الشفقة لحزب الأنثى المنكسرة أمام سطوة العشق الجامح، ظننت أننا سنواسي بعضنا كم نحب هذا الرجل العابث..؟!!

لكنها حين واجهتني كريشة تافهة تنفخها بأنفاسها الغاضبة؛ كلبوة تعبث بقطة، فقط لأنهما من فصيلة واحدة.. حينها أدركت أني دخيلة..

أنني زينت الأشجار بغير أوراقها إنما بقصائدي الورقية عن حبّ لم تعرفه امرأة قبلي لرجل. فماذا فعلت أنت أيها الرجل الذي سكن مسام روحي وتخلل شعيرات دمي. هل تقتلعني كنبتة ضارة سكنت بستانك العائلي لأنني أهدد سلامك الأسري.

عندما رأيتك على بعد خطوات من مذبحة كرامتي، ومشاعري تقف في زهو داخلي لئيم، فهاتان المرأتان توسطتا حلبة الجدال النسوي من أجلك أنت، ذكر ينقصه الريش كي يطير ويصيح في دجاجاته كي تصمت.

حين رأيتك تضع يديك التي أحب في جيبَي بنطالك بملل تنتظر المنتصرة كي ترفع ساعدها القوي وتنصرف بها بعيداً عني لأنني أعرف نفسي أضعف من أن أنتصر على نفسي.

حينها أدركت أني دخيلة..

لـم يغفـر لـي حبي لـك.. كما لن يغفر لك حبي لك.. سـأترك قلبي لديك وديعةً أو قرضاً أو حتى هدية عشق..

لـم أعـد راغبةً في اصطحاب نقاط الضعف معي، حين أتركك سأتخلى عنه كما تخلى عني ولحق بك وأنت تضمها؛ مهدئاً لثورة غيرتها المتوحشـة، تهدهد رأسـها على صدرك وتبتعد بها عن هذه الأشلاء التي هي أنا..

المواجهة بيني وبين زوجتك، أما أنا فلست أدعى سوى المرأة الأخرى..

العمر عام فقط

اغتصب الظلام الحجرة، النافذة المفتوحة تقاوم بصمت وتدفع شعاع القمر كي يدخل، جذبها الشعاع الفضي من عينيها تحدق إلى القمر.

الظلام يجابه عينيها النظر وقد انعكس عليهما غزل النجوم.

أسـدلت جفنيها سـتاراً يخفي ألم البوح، تناولت الهواء عقب سيجار افتراضي ورشفت أنفاساً ولفظتها في وجه الغياب:

– ما كان ليدخن القديس الملهم..

لكن، هي كانت لتفعل في وقت عصيب كهذا.. داخلها يحترق ولا بـأس مـن نفـث الدخان كي يهدأ لظى الاحتـراق، جوفها بركان وجع مجبرة أن تخزّن حممه المحرقة.

كل شـيء يقول أنه الانتهاء وسـتنتهي هي وبراكينها لا محالة. كم تبقى من العمر قبل الانطفاء، هل يكفي للبصق في وجه الأقدار الغبية والتوبة من معصية البصق.

كأن العمر كله عام فقط.. شـطره في الجنة وشـطره تماماً في الجحيم.

العمر عام فقط.. حتى هذه اللحظة.

مـاذا حـدث فـي النصـف الأول من عام العمـر؟ هي لا تدري تحديداً، وكيف حدث هذا في النصف الثاني من عام العمر؟.. هذا ما تتمنى معرفته قبل الانطفاء.

كيف غدر القديس بنصف عام من العشق؟ ولماذا أسلمه لنصف عام من العذاب والحيرة..؟

اقترانهما سحري وغير مألوف مثل انفصالهما، ليس ككل قصص الارتباط المملة التي تنتهي باللقاء والاكتفاء من عواصف الشوق والاحتياج، لقد كانت قصة أججها البعد والاغتراب، وطفرة اللقاء كانت عابرةً أعقبها السفر الطويل.

في أيام الغربة كانت رسائله عبر الهاتف هي صلتها بالحياة، هي أنفاسه يبثها في صدرها فتستنشقها لتحيا في البعد.. وحين أوقفها فجأةً توقف الهواء عن دخول رئتيها وعاشت الاختناق.

الصوت الهامس الذي هتف يوماً: أحبك، لا تتركيني. هو نفسه الصوت الذي صرخ في وجهها: أرجوك دعيني وشأني.

لفترة طويلة أسلمت حواسها لرحى الحيرة والوجع، مشنوقةً بعلامة استفهام وألم تسأل صوره في أرجاء القلب: لماذا؟

لماذا عاد من سفره الطويل ليكسر صليب الحب الذي شنقت على أجنحته كل أحلامها الصغيرة؟.. وعودها الدافئة، رداء النوم الليلكي، وزجاجة العطر اللذيذ، وعزفها على العود، وغناؤها له، وكثير من الهدايا التي لن يراها إلا هو.. همست في وجه الأحلام المنكسرة:

– كنت سأهديه يوماً آلة العود ليعزف عليها ألحاني الراقصة له.

لأيام طويلة ظلّ حدسه اللعين فزاعة قلبها المحب، تتنفس بمشيئة ما يقوله هذا الحدس المعتل وكيف يعصف بسلامها الداخلي. طاغية آخر يصدر أحكامه القهرية ضدها دون محام أو دليل إدانة.

عندما يكون حدس مريض بالشك لعنةً تصدر الأحكام عليك ثق أنه الانتهاء..

- والآن يا نبضاً جوار النبض، ماذا يقول لك حدسك السخيف حتى تهجر نصف العام مشلولاً بوحشة الفراق؟ كيف يعمل هذا الإله الحدس في رأسك حتى يقبض روحي كلما شاء عندما تهاجر، وحين تأتي لتكمل مراسم الوفاة، قل لي ربما أفتدي قلبي بقول حق كلما أسلمته للذبح.

قساة هم الرجال..

لعل الله حين خلق آدم وجمع من أركان الأرض التراب انحشر في الطين صخر أملس فكان هذا الصخر قلوبهم، ولولا أمر الله ما تحرك أو دق..

قالت وهي تنفخ دخان الهواء بين أناملها:

- ربما أصبح ذات يوم نجمةً مثل هذه النجوم التي في السماء.. ربما أخطفه وأقيده؛ كي لا يفر أو يهاجر أو يهجر بعلّةِ الحدس.

ربما.. وربما لا يستحق..

جلست قبالة النافذة تفتح ذراعيها للضوء وتسرد الحكاية..

دام ارتباطهما ستة أشهر.. كان الحب هو الدقائق والثواني وكل الساعات في الأيام التي تعدّها هي كي يعود من اغترابه البعيد.. الأيام التي أنجبت لقاءً يتيماً عمّدا فيه الارتباط ثم غادر.

في غربة الحياة تموت المشاعر أو توضع في ثلاجة الانشغال ولقمة العيش، حينها يصبح الحب ترف الشّبعى ويحرم منه كل جائع مسكون بأكثر من جوع، يصبح الحب أمراً تافهاً ومعيباً خاصةً إذا

كنت قديساً أيضاً.

ربما تعرض حبها لمجاعة الشعور ثم نفق في صدره كحصان بري متوحش لم يروض بعد، ربما أضجره سيل العشق الجارف وفي طريق تدفقه المثير قتل الشعور، ربما كره الحصار وحرائق الغيرة حين تشتعل في قلبها وتلسعه عن بعد فتفحّم الحبُّ في قلبه وأصبح رماداً.

ربما وشى بها حدسه اللعين وأقنع حواسه أنها خائنة، ربما يراها لغيره كما هي له.

ربما كانت الأسباب غيبية وغير عادلة؛ لكن الذي حدث أنه لم يعد يريدها هي بالذات ولا تدري لماذا..؟

همست في وجه الشكوك وهي تصهرها:

– لكنني لم ولن أخونه.. لأنني لم ولن أحب سواه.

هي لا تعلم آخر ابتكارات حدسه الخارق، وكيف أوصلهما إلى نقطة مشفرة عجزت توسلاتها عن فتح غموضها الخفي، فالقديس كانت له أفكاره العجيبة أيضاً، قناعاته المخيفة والكثير من الشك والريبة أيضاً..

حين عاد من غربته البعيدة، قذف بها في غربة أبعد عن الحياة ببضع كلمات مهذبة أنيقة، وانتهى الأمر لديه وعاد من حيث أتى..

لكنها بدأت في رحلة نصف العمر.. نصف العام.. وحيدةً إلاّ من مشانق الذكريات.. نصف عام استحالت فيه إلى كائن لا يشبهها.

ولم تفقد الأمل للحظة أن تستعيد هذا الرجل.

هذا الرجل بكل النقائص التي فيه والقسوة، بكل الوجع الذي حفره في روحها.. تحبه هو، فلا أحد يشبهه مثلها، إنه حصتها من

السعادة وحلواها المرّة الطعم المحرمة.

لأيام طويلة تنتزع لحظاتها مغموسة بالذهول والصدم، كانت تخوض بحرها وحيدة تحاول الاهتداء لشاطئه هو، تنفق دموعها ببذخ الأغنياء على كل شيء يذكرها به، وكل يوم ترسل إليه بقطعة كبيرة من روحها عبر رسالة تذكره بها، تستجديه أن يعود أو يشرح أسباب الغياب، حتى انتهت تلك الروح أوصالاً صغيرة..

ولكنها لم تيأس أنه من حقها هي.

كل يوم ترسل جزءاً من كرامتها تتخبط في دمائها وغبائها تحت قدميه تحديداً فيطأها بلا مبالاة ويمضي..

ولنصف عام من العمر.. انتهت هي، وانتهت حكايتها دون أن تدري كيف أو حتى لماذا..؟

ومات الأمل في أن يعود لها..

لو خاطبت صخور الأرض كلها كانت أرق من صخر قلبه، لكنه أبداً لم يعد.. ولن يعود..

واليوم..

وهي تجلس قبالة نافذتها فاتحة ذراعيها للضوء كي يدخل، تشاهد النجوم البعيدة، تراه أبهى منها.. تتمنى فقط رؤيته بكل الفقد الذي يحرق جوفها.. تأملت النجوم حيث يجب أن تكون، وأطفأت سيجارة الهواء في منفضة الأحلام الميتة..

وحيــن بعتنــي بأتفه ثمن اشــتريت نفســي
بأطنان الألم وأعتقت قلبي حراً للأبد.

فكرية شحرة

سألتني فيما عيناها الصغيرتان ترفان نافية إجابتي المحتملة:

– هـل تعتقديـن أنـه الإنصاف والعقـاب؟ إن الجزاء من نفس العمل؟

قلت لها مخففة من نبرة اللهفة في صوتي:

– لا أظن.. كثيرة هي المقولات التي لا علاقة لها بما يحدث لنا، نحن نجيد رفع لافتات من الكلام الحكيم ثم نمر من تحتها دون أن نصدقها.

كانت قد اتصلت بي هاتفياً وقالت كمن يضع صخرة عن ظهره:

– أنا قصتك القادمة.. فمتى نلتقي؟

وأنا أجالسـها في ذلك المقهى النسـوي الهادئ، تركتُ العنان لصوتها الناعم يقص مشاهد متراكمة من حياتها يختزنها عقلي بلهفة كأنني أعايشها بفعل التلقي فقط.

كانـت قصتهـا في بدايتها قصة فتاة يمنية عادية ترغمها الأسـرة على الزواج في سن مبكرة جداً من ابن عمها المغترب الذي يصنع المعجـزات كـي يحصـل عليها. لعل فتيل الاختـلاف في القصة هو تلك الكراهية التي حملتها له في صدرها منذ البداية، إذ كان المبرر فـي نظرهـا وجيهـاً. إنه لا يشـبهها روحاً حتى إنه لـم يتلق أي تعليم إطلاقاً، والفارق بينهما في السنّ يصل إلى ثلاث عشرة سنة، ثم إنها أرغمت على الزواج به ترهيباً وترغيباً.

يبدو الأمر معتاداً في بيئة اليمن، الضاربة في الجهل والتخلف، خاصة أن أميرة كانت تدرس في الصف التاسع ولم يكن هناك فرصة لإكمال تعليمها، لكن ابن العم المحب الذي قاطع عائلته من أجل الارتباط بها منحها حق إكمال تعليمها، خاصة وهو المغترب في دولة بعيدة، كما أثث لها شقة في عمارة والدها جوار أمها كي تظل حيث تحب أن تكون.

إلى هنا تبدو القصة جميلة فقد حصلت أميرة على زوج متفهم وكريم وإن لم تعاشره بالقدر الكافي بسبب الغربة، حتى أنها تمكنت من إكمال دراستها الثانوية وبإمكانها الالتحاق بالدراسة الجامعية، لكنها أخبرتني بمرارة:

- مع تعامله الحنون معي لم أستطع أن أحبه، لم أكن قادرة على النظر إلى عينيه مباشرة، كنت أخشى أن يرى مدى نفوري منه.. لقد كنت أجلس بمحاذاته أثناء تناول الطعام في كل وجبة، وأتحاشى أن تكون جلستي أمامه في سمراتنا أو مقيلنا.. كنت أطفئ الكهرباء حين نتمدد على فراش واحد وأغمض عيني بقوة حتى لا تقتحم ملامحه مخيلتي، كنت أصرف تفكيري في موضوع لرواية تركتها بجوار السرير أو أستعيد بعض ذكريات حلوة لطفولتي تخفف عني هذا اللقاء الذي لا أطيقه، وأقول لنفسي هي أيام ويعود لغربته.

لقد كنت أشك في أنني امرأة لها عاطفة كبقية النساء كما تأكدت لاحقاً أنني لم أكن أنجب كالنساء أيضاً..

كنت زوجة متفانية جداً في خدمته وتلبية طلباته ورغباته، صبورة جداً في تقبله جسداً وروحاً، لكنني لم أستطع أن أحبه كما

تحب النساء أزواجهن.

كان قد بدأ يقلق من مسألة الإنجاب خاصة أن فترات مكوثه معي قليلة، لذا فكر في أخذي معه إلى حيث يعمل، كان قراراً آخر يضاف إلى رصيد كراهيتي له فقد حرمني الالتحاق بالجامعة، وكان هذا أول الحبال التي قطعت في علاقتنا، وتوالت بعدها حبال الوصل بالتمزق.

مع استمرار زواجنا لعشر سنوات بلا أطفال أو حتى وهج حب متبادل انطفأ تعامله الحنون، وأصبح يجتهد في إيلامي وجرحي بكلماته وأفعاله، وصار البقاء معه ضربا من الجنون، فلا شيء يربطني به منذ البداية، حتى جسدي رفض أن يتقبل منه أطفالاً.

عدت لليمن بعد مشادة عنيفة رفض فيها منحي الطلاق رفضاً باتاً وهددني بالبقاء معلقة بقية عمري، لكنني كنت قد وطنت نفسي على الإفلات من الحياة معه مهما كان الثمن.

وافقت عائلتي على فكرة الخلع، ربما تكفيراً عن ذنب إرغامي على الزواج به في تلك السن الصغيرة.

قالت: هنا تبدأ قصتي..

بعد سنوات من انفصالي عنه كنت قد أبعدت عن تفكيري قضية الرجل تماماً، كنت أتذوق نجاحي في العمل وممارسة حق الحياة كما أرغب بدون سلطة الرجل أو إرضائه الصعب، إلى أن قابلت «عصام».

مصادفة جمعنا عمل مشترك، جمعنا أكثر مما ينبغي لقدرتي على الفهم، لقد كان كل ما فيه موجودا في مخيلتي لصورة الرجل المشتهى دون أن أعلم. كل شيء صدر منه بعثر خلايا روحي

وجمعهـا فـي قبضته، كل شـيء قالـه أو فعله ظل محفورا في خيالي أسترجعه كزاد ينمو به كائن الحب في قلبي.

لقـد كنـت أقـع في الحب.. كنت في بـرجٍ عالٍ محمي من كل العواطف والمشـاعر، أتمتع بحيادية قلبي نحو كل شـخص، ويبقى كل من حولي على مسافة قريبة من القلب لا يتعداها، حصانة قلبية شـكلتها تجربتـي الأولـى، فكيـف أفلـت «عصام» زميـل العمل من تحصيناتي وأمتلك أنفاسي كلما لاح لي في مكان ما..؟ لقد أصبحت أخشى أن تسرق لحظات عمري دون أن أتشرب من وجوده أمامي، كنـت كعابـد يجلـس تحت قدمي معبوده لعله يلقي عليه بنعيم كلمة أو نظرة رضا، كنت أنجرف نحوه بلا صبر أو تعقل، وأرى في عينيه من الرغبة ما يشجعني على إسقاط الحصانة بلا قيد أو شرط.

في لقاءات خاطفة تجمعنا في العمل كان التقارب العقلي يوثق صـلات الـروح ويصهرها في وهج نخشـى أن تخدشـه النظرات أو الأنفاس المختنقة المتقطعة..

كنت ألمح نفسي في عينيه وأسكنه خلايا روحي بديلاً عن كل ما مر في حياتي من إحباط.

إنه الحب..

فـأي حاكـم طاغية هـو الحب يتلهى بتعذيب رعايـاه بإيقاعهم تحت طائلة سـلطاته القسـرية، يسـتلذ حيرتهم ويتغول من أوجاعهم ثـم يصلبهـم علـى جدران الشـوق والحرمـان! ينتزع أنفاسـهم لهفة وشهقات حنين تضج بها الصدور ولا أمل!

وجوده كان الأمل.. لم أكن أتمنى في كل حياتي إلا أن يكون هو حياتي أنا، وقد كان..

أخبرني في رسالة مرتعشة تتنفس بين أصابعي عبير أنفاسه أنني تلك التي انتظرها كل العمر.

أردت أن أصدقه..

لأنني أحبه حتى الجنون أردت أن أصدق أنه كان مثلي ينتظر نصفه الآخر وأن زواجه وإنجابه كان محاولة لخلق ذلك النصف الآخر.

حتى الآن أبدو كامرأة محظوظة في طريقها للارتباط بالرجل المناسب والمشتهى، لكنه لم يكن في متناولي سوى في الأحلام، فقد كان رجلاً متزوجاً من امرأة تعشقه هي الأخرى، وأبا لأربعة أطفال يراهم منتهى طموحه وسعادته.

لا مكان لزوجة أخرى في حساباته، لقد ترصّده الخوف على استقرار أسرته أكثر مني، لقد كانت محاولة زوجته الانتحار ذات مرة غيرة عليه سبباً كافياً كي يضع عواطفه في ثلاجة من الشوق المكبوت.

ماذا يفعل من يجلده الشوق والبعد اللذان لا يعرفان استراحة أو رحمة أو يشركان النسيان بينهما..؟

ما السبيل كي نشبع لغة الحب التي لا تجيد سوى نحيب الشوق واللهفة والظمأ الذي لا يرتوي من دموع العجز والقدر؟

لقد كان هناك، ثابتاً في صمود بدعوى مصلحة الآخرين يلوح لي بالجنة أحياناً وأحيانا بالجحيم، وأنا أشتعل حباً لا ينطفئ بقسوته أو تباعده الدائم. يدنو مني فيجد نفسه داخلي فيرحلني عن تفكيره كشيء ميؤوس من رشده..

يقول لي: حبيبتي الأعقل والأرشد بين النساء. فكيف يجتمع

جنون الحب مع رشد التعقل؟

في اختلاء جمعنا في العمل، كنت أسأل نفسي أين نفوري من كائن الرجل ورغباته المهينة؟ لماذا أشعر برغبة في الذوبان فيه كلما وصلت إلى حواسي رائحة جسده المشبع بأنفاس رجولته فقط؟

لماذا أصبح السكون بين ذراعيه هو منتهى خيالي؟ هل لأنه محرم علي دخول مملكته فهو لامرأة أخرى، أم أن كيمياء الحب هي من تتحكم في رغبات أرواحنا وأجسادنا؟

قلت له مرة:

أشعر أن الارتباط بدافع الحب يكون مختلفاً، وثماره تكون ألذ وأكثر نضجاً.. كل من عرفتهم قد اقترنوا بدافع الحب كانت حياتهم أكثر حرارة وتماسكاً.

همس بحنان:

ليس دائماً، فسيبقى اختيار القلب فقط، أما أنت يا أميرة فقد اخترك قلبي وعقلي، أنت أنا، فأين كنت قبل عشرين عاماً؟

ولماذا ليس الآن يا عصام؟ لماذا نترك دقائق العمر تمر في التمني فقط؟ كل لحظة تمر علي لست فيها أشعر أنها ليست من عمري بل مخرز يخترق قلبي.. لماذا لا تكون لي وأكون لك؟ بيدك ذلك، فأنا أقبل بما تجود به قدرتك على العطاء بين اثنتين، بل أقبل بزواج في السرّ وأقبل ساعات معك في الأسبوع، وأقبل أي شرط تضعه كي نكون معاً.

تأوه بحيرة وهو يقول: الأمر أصعب مما تتصورين، لا أستطيع التضحية بعائلة متماسكة من أجل نفسي فقط، أخاف على أولادي من فكرة ضياع أمهم.

أميـرة.. كنـت أتمنـى لـو عرفتـك مـن قبـل.. أحبـك لكني لا أستطيع..

كل مرة يصطدم النقاش بهذا الجدار، تتشظى هي وتحاول عبثاً لملمة بعثرة كبريائها وتنصرف، كم هو موجع أن يرفضك من تعشق ذرات الهواء التي يتنفسها. لقد كان حبي له عقاباً ربما لذنب فعلته.

كانت تحاول في كل مرة دفن هذا الكيان الذي أصبح أكبر من مقدرتها على دفنه، وكان يدفنها شـوقاً وحزناً، كانت ترفضه سـاكناً لكل مسـام الروح والجسـد وكان يعتصرها برغباته واحتياجه لذلك الرجل.. هو الحب حين يصبح عدو القلب وكفنه الجميل..

حيـن جاءتنـي تقـول أنـا قصتك القادمة، تلهفت بـروح الكاتبة لحكايـة أختمهـا بسـعادة ولو لمرة واحدة، تذكرت الفراشـات حين تمتص رحيق الزهر، فهل الحب رحيق القلوب؟

لكنها أخبرتني أن طريقها معه مسدود، وأنها تشبعت من اليأس والأمل والتأرجح بين الحب والألم، وأنها لفرط حبها له تمنت عليه الارتباط ولو عاماً واحداً، أو يوماً واحداً.

قالت لي والدموع تتأرجح بين جفنيها:

تخيلي ماذا قال؟ لقد قتلني من حيث لا يعلم.. لقد اتصل بي قائـلاً ببسـاطة خنقت فرحتي بصوتـه: حبيبتي أميرة، لقد بدأت أفكر بالارتباط بك ولو لشهر واحد.

أنهت عبارتها وشـهقت بوجع أوجعني، وعادت تسـألني فيما عيناها ترفان نافية إجابتي المحتملة:

هـل تعتقديـن أنـه الإنصـاف والعقـاب؟ إن الجـزاء من جنس العمل؟ لقد رفضت زوجي السابق بكل جوارحي.. وتمنيت عصام

بكل ذرة من كياني، فهل عذابه لي عقاب من جنس العمل؟

وأنا أستمع لبوحها الحزين، لم أشعر بمذاق العسل المفترض من رحيق زهرة، شعرت بالخذلان كالعادة، كم الحياة غير منصفة!!

هل يصنع الحب كل هذا الشقاء؟ ماذا ترك للكراهية إذاً؟

عشق الأماكن

المدينة تبتعد..

بل كنتُ أبتعد عنها أنا وهي ثابتة ترمقني من مكانها كأنها تعاهدني على الانتظار.

لقد تقرر انتقالنا من أجل عمل زوجي، وهذه ليست المرة الأولى التي نغير فيها السكن من مدينة إلى أخرى من أجل عمله، لكنها المرة الأولى التي تسكنني مدينة سكنتها أنا.

هي المرة الأولى التي أعشق فيها جدران منزل إسمنتية باردة بعثت الدفء في جسدي وروحي، حين كانت يوماً تشتعل حرارة بوجودي فيها..

هي المرة الأولى حين أرحل وأترك جزءاً كبيراً مني مصلوباً على جدران تمنيت الالتصاق بها حتى الموت..

والسيارة تلتهم الطريق مبتعدة، كانت الوحشة تلتهم جوفي مخلفة شعور الفراغ والحزن والاغتراب كأني أتخلى عن أنا.. وأرحل بعيداً دونها.. كيف تراني سأعيش تلك الأيام التي لا بد أن تأتي؟

كيف ستحويني جدران غير تلك التي أحببتها؟ كيف يضم جسدي غيرها؟

كيف سأخلو لنفسي وتلك الغريبة عني تشاهد تفاصيلي الصغيرة بعينيها، تراني حين أنزع ثيابي، وأضع زينتي أمامها، وإذا

تعبت كيف أسند ظهري لصدرها..؟ كيف؟ لا أدري.

وصلنا، أو وصل زوجي والأطفال، أما أنا فما زلت غائبة حيث كنت وقد لا أصل أبداً. هذا ليس منزلي الذي اختارته روحي، هذا المنزل لن يسكنني مهما سكنته، حجراته الواسعة لا تعنيني، فقد ضاقت روحي بما امتلأت به، نوافذه وأبوابه أوصدتها في وجه التعايش مع

هذا المنزل، لقد بدت لي تلك الأبواب والنوافذ كأنها ستغلق عالمي دوني، ستكون سجنا لخيالاتي الملتاعة بالفقد فقط، تناصبني العداء وتنتهك حقي في الاختيار.

كان زوجي كعادته في عالم منفصل عما أشعر به، لقد كان يجد نفسه في أي مكان أنا فيه وهذا يكفيه، وكان المنزل بالنسبة له هو أنا، وأنا ليست هنا..!! نعم، لقد خلفتها هناك بكل تفاصيلها الجميلة التي عشقها زوجي.. حين عشقت هي تلك الجدران البعيدة من أجله هو.. من أجل عائلتي لم أصر على البقاء أو التخلي عنه في خياراته الخاصة، أما خياراتي فلا أذكر أنه كان لي خيار خاص في شيء أو أمر يخصني منذ وعيت..

لقد كنت كأي امرأة مجرد ملحق لرجل، شيئاً من ضرورات الرجل الحياتية التي يحرص على توفرها بصحة جسدية جيدة وإن اعتلّت روحها كثيراً.

لقد كنت أحن لداري تلك عاجزةً عن التنفس بعيداً عنها، أشتاق لدفئها وحجراتها وأروقتها، أشتاق لصدى ضحكاتي في جوانبها. أهفو لوضع لمساتي الأنيقة هنا أو هناك كي تزداد بهاء

بهـا، أحـن لرائحتها الدافئة حين تلفـح وجهي كلما غادرتها وعدت إليها كل مرة بشوق..

أين أنا منها الآن؟ وإلى متى يظل الحنين إليها مشتعلاً كجذوة من نار تحرق أيامي وليالي؟

الآن جـدران تلـك الـدار تضم امرأة غيري، فمثلها تسـكن من النساء الرائعات المتأنقات ولن تبقى خاوية مثل خواء روحي أنا،

أما أنا فقد حرمتها بسـبب زوجي وخياراته.. أحياناً أشـعر أن محبتي له تخبو في صدري، تخبو رويداً، وأخشى فقط أن تهب ريح من إحدى نوافذ هذا المنزل كي تطفئها للأبد.

حيـن يأتـي الصباح ويذهب هو إلـى عمله والأولاد للمدارس كنت أحاول تهيئة نفسي للصراع مع الجدران الصماء في هذا المنزل التـي تطبـق علـى أنفاسـي، أحـاول عبثاً أن أضفي لمسـة من روحي هنا أو هناك ربما أتفق مع هذه الجدران الكئيبة، سلال الورد زاهية الألوان التي

أحضرتها مع أوانيها الجميلة تحطمت في الطريق إلى هنا، فلا مجال للجمال البريء في هذا المنزل.

كل يـوم يمـر أتحـول فيـه من ربة بيت نشـيطة إلـى كتلة حطام متحركة تصب سـخطها على السـقف والأرضية والهواء بالتسـاوي، أقاتل الجدران بشراسة وأرفض التعامل مع الحجرات أو أركان هذا المنـزل، أهمـل كل شـيء كنـت أهتـم به، لم يعد هناك ما يسـتثيرني لخلـق الجمـال والكمال في حياتي، تفاصيلي الجميلة التي عشـقها زوجـي تحولـت إلى فخاخ عجز ونقـص مني يتصيدها هو ويكتوي

بوجعها حين تنطبق عليه هي كل ما لاحظه.

تحـول الانقبـاض مـن هـذا المنـزل إلـى كراهية وعداء سـافر ومحاولة التخلص من الآخر، أشعر أن جدرانه تزداد قبحاً كل يوم.. تزداد وحشة وصقيعاً كأنها تنتقم من وجودي فيها.

حاولـت مـرات عديـدة إقنـاع زوجـي أنني لم أعد قـادرة على تحمـل هـذا الوضـع، لم ولن أحـب هذا المنزل وأرغب في الرحيل عنه ومنه، لكن زوجي الذي يحرص على توفير كل مظاهر الرفاهية حولي عجز عن استيعاب هذا العداء والكراهية بيني وجدران منزل، فـكان يهـون علـي كل مـرة محـاولاً إقناعي أن هذا البيـت نادر ولن نجد مثله بسهولة، فقط علي الاهتمام بترتيبه ونظافته كما عودته وألا أهمله هكذا، فقد أصبح أشبه بخرابة أو زريبة.

انتهى أوان تجميل العلاقة بيني وبين هذا المنزل بعد أن وصلنا إلـى دائـرة الكراهيـة المطلقة، كل محاولاتي تتركز في الخلاص منه بكل طريقة، وليس أمامي سوى إقناع زوجي برغبتي في العودة من حيث أتيت.

زوجـي العاجـز عن فهم منطقية هـذه الكراهية والمحصور في خيـار واحـد هـو البقاء حيث هـو، دفاعاته الوحيـدة كانت التجاهل والإهمال لرغباتي المزاجية غير المقنعة في نظره، التسويف والوعود الكاذبـة اختيـاره الجديـد، وأخيـراً التصريح بتغيـري وإهمالي لبيتي وأطفالي، وضيقه وتبرمه من تصرفاتي غير المسؤولة.

لقد وصلت إلى نهاية بلا تفريعات أو حلول وسطية.

التهم اليأس قلبي في إقناع زوجي، فخيرته بين الرحيل بمفردي

أو الجميع، لكنه كعادته قابل تهديدي باستهانة وعدم اقتناع.

ذلك الصباح الأخير..

آثـرت الرحيـل في غياب الجميع، حتـى جدران المنزل كانت غائبة عن تفكيري، لم يعد يربطني بهذا المنزل حتى التفكير بقبحه، في حقائبي حملت النسيان فلا شيء يستحق البقاء.

ضد النقاب

- صديقتي الحبيبة: اليوم وأنا أخطو أولى خطواتي نحو هذا المبنى العظيم أخذتني الرهبة وأنا أراه فاتحاً جناحيه المهيبين لاعتناقي وبوابته الواسعة تفتح فاها مبتسمة لي ابتسامة مرحبة، بادلت هذا المكان الابتسام وشعرت أني سأضمه بين جوانحي يوماً كأغلى مكان، وأنه سيصبح بيتي الثاني وسكني لخمس سنوات طويلة فيجب على مزاجي أن يعقد مع كل أركانه صداقة طويلة حتى لا يضيق أحدنا بالآخر. وأنا أتجول خلف مشرفة القسم مع عدد من الزميلات يرشدننا بحنان مؤقت لمواقعنا في معركة التعايش مع أنماط عديدة من الطبائع والأخلاق، شعرت أنني لست الوحيدة التي تفكر بالعودة من حيث جاءت، وأيضاً تتمسك بالبقاء حيث يجب أن تكون.

مرت الأسابيع الأولى في رحلة الاكتشاف والتعرف كأنني طفلة في عامها الأول تتعلم كيف تتذوق ما حولها وتبلع ما يجب بلعه وتلفظ الآخر، لقد تعرفت على زميلتيّ في الغرفة، فقد كنا ثلاثا نشترك في سقف واحد تخترقه أفكارنا المختلفة وقت الشرود لتعود أوقات المذاكرة وتناول الوجبات أو إعدادها..

زميلتي «حنان» فتاة مهذبة جدا وخجولة ومحتشمة ومن عائلة معروفة وعريقة، لقد جاءت لتتعلم وتصبح شيئاً ذا بال يدعو للفخر.

أما «مايسة» الجريئة اللعوب فقد جاءت كي تتعلم فن الاستمتاع بالحياة كما تقول.

لم يكن يجمعنا سوى مظهرنا الخارجي، فكل واحدة منا ترتدي الحجاب اليمني مع النقاب والجلباب، وهذا في نظري يكفي، فكل واحدة لها عالمها الخاص واهتمامها السريّ..

أنت تعرفينني.. لقد كنت أعشق مراقبة الناس وفتح صدري خزانة لأسرارهم ومشاكلهم، وكنت أجعل محبة من حولي أكبر اهتماماتي، فكانت كل صديقة تبثني همومها وهي تثق في صدق حفظي لها.

وهنا بدأت معاناتي وانقلبت هوايتي إلى محنة، ولأنني أعرف أن لكل شخص قلبا يحتوي قلبه، وأنك القلب الذي يحتويني، وصديقتي التي أثق برأيها وصدق محبتها، فسأشكو إليك وأطلب النصح منك.

دمت لي أبداً، هند..

عزيزتي: أنا سعيدة أنك وجدت في ذلك المكان الموحش أصدقاء غيري وأن الوحشة لم تسكن قلبك الجميل بعدي، كما أعرف أنك ستتغلبين على كل الأزمات التي قد تواجهك كطالبة في سكن داخلي وستمارسين هوايتك العجيبة في احتضان هموم الغير حتى تثقلي قلبك الجميل، ولأنك لم تخبريني بما ألمّ بك فأنا أرجوك أن تحاولي الاهتمام بك وحدك وتتركي الآخرين يهتمون بشؤونهم.

دمت لي أبداً، نوال..

غاليتي: تعرفينني! لو تركت العصافير الأشجار يوماً فإن الهموم

ستتركني، إنني أبدو كقوة جذب طبيعية لها وكأنني مصدر ضوء لا تطير حوله سوى المشاكل التي تشبه الحشرات الكبيرة البشعة، فلا يمكنني وصف ما أنا فيه بحقل الفراشات. ولكن دعيني أقول لك كيف تحولت هوايتي بدور الأم الروحية للجميع إلى محنة لا أدري كيف أتصرف حيالها، إنهما رفيقتا الحجرة حنان ومايسة.

كما أخبرتك، هما متناقضتان في كل طباعهما واهتماماتهما، وهذا الأمر لا ضير فيه، فكل الناس تختلف وتعيش على اختلاف، لكن ما يؤلمني في هذا الأمر هو تصرف كل منهما نحو

الأخرى، فحنان الخجولة المحتشمة ترى في مايسة الفجور والفسق وقلة الحياء والدونية، خاصة حين رأينا علاقاتها المريبة عبر الهاتف واتصالاتها مع أكثر من شاب من خارج الجامعة وتفاخرها بما تفعله مجاهرة دون حياء، يبدو الأمر منفراً لي أنا أيضاً، خاصة مع تعدد

علاقاتها، فلو أنها أحبت شاباً حباً نظيفاً وارتبطت به روحياً لساعدتها في مداراة هذا الحب والحفاظ عليه من اللغط والكلام حين تأتي كل ليلة تقص علي مغامراتها الكريهة كأنها على كرسي اعتراف أمام الكاهنة الأم. في أحدى الليالي سألتها عاجزة عن الفهم:

– كيف ترتبطين بعلاقة حب مع أكثر من شخص؟

فأجابتني بسخرية عجيبة:

– ليس حباً، هي علاقات عابرة.

صدقيني لم أعد أفهم ماذا تقصد بالعلاقات العابرة؟ وكيف يتم عبورها من القلب هكذا وتنفذ منه دون أن تترك أثراً كما تترك الحروق؟ يبدو فيها الأشخاص وقد التقوا في حافلة في طريق ما،

وتبادلوا أحاديث تافهة عن الطقس وأسعار البقالة، وقد يبدي أحدهم إعجابه بطلة الآخر وملابسه الأنيقة ثم ينزلون في أول محطة ويقول كل للآخر وداعاً، وتكون هذه علاقة عابرة.

تبدو مايسة عابثة بلا أخلاق، وكنت أضيق بحكاياتها، وأتمنى لو تعتقني من سماعها كل ليلة، لكن هذه ليست المصيبة الفعلية، بل المصيبة أن مايسة لا تسيئ لنفسها فقط، بل لحنان أيضاً، سأخبرك بالمصيبة في الرسالة القادمة فأنا لدي الآن محاضرة.. محبتك هند.

عزيزتي هند: لقد أثرت قلقي عليك فكيف لم تكملي القصة؟ وكيف تفتحين آذانك وقلبك لمريضة القلب هذه؟ أي نوع عابث من الفتيات هي؟ أرى أن تؤدي واجب النصح لها

فلربما تعتقد أنها مرغوبة من الشباب بهذه الطريقة ولا تدرك أنها ستبقى مجرد فتاة وضيعة سهلة في نظرهم.. محبتك نوال.

عزيزتي نوال: أنت لن تصدقي أن هذا لا شيء جوار جرمها الآخر، فكل مغامراتها مع الشباب تنتحل صفة واسم حنان وعائلتها المعروفة، خاصة وقد غدت تعرف عن عائلتها كل شيء.. تستغل النقاب الذي يغطي وجوهنا جميعاً فلا نُعرف إلا كلون أسود جماعي للناظر من بعيد.. تستفيد من هذا الرداء التنكري الذي يحولنا إلى مرتادي حفلة تنكرية في الظلام لا تُعرف شخصياتنا ولا يميزها الآخرون إلا عن قرب.. لقد كرهت هذا النقاب.. تمنيت أن أسير سافرة الوجه كي لا تنتحل أخرى ملامحي واسمى وتلهو بشرفي وتعود لا يعرف غيرها أنها ليست أنا.

لا أدري كيف أتصرف وقد عرفت بالأمر، فليتني لم أعرف حتى لا يتناوشني ضميري بكل هذا القلق والحزن. إنني كلما هممت أن

أخبر حنان المسكينة وجدتني أشفق عليها من همها الآخر، فهي رقيقة القلب مغرقة في المثالية والملائكية ولقد أوقعها حظها الحاثر في مأزق قلب ومطب حبّ يكاد يهوي بها عن براءة..

لكن قبل ذلك دعيني أحدثك عن ذلك الأستاذ المعيد في جامعتنا والذي يجمع قلوب الطالبات بين أصابعه كأنها قطع سكاكر يتذوق ما شاء منها.. إنه هشام، شاب لا تنقصه الجاذبية الرجولية الساحقة، أو هكذا تراه أكثر الطالبات، أما هو فقد كان من الذكاء لكي يبدو بشخص الرجل المهذب المحترم الذي لا يقع في الزلل مطلقاً مهما كانت سبل الإغراء، فكانت سمعته في الجامعة محط شهادة الجميع بالنزاهة والشرف. وعلى هذا أحبته حنان ذلك الحبّ الشاعري المسرف في البراءة، وما كانت تعي من حكايات البنات سوى عذاب الغيرة المحرق الذي تكتوي منه بصمت يثير شفقتي، فكيف أخبرها عن أفعال مايسة فوق ذلك؟

لعلك استنتجت أنني لا أظلم «هشام» هذا، فقد سبق وأن عرفت كعادتي قصة أو اثنتين تجعلني أثق أن لا نزاهة في الرجال في ما يخص النساء.. محبتك هند.

صديقتي نوال: انتظرت رداً منك أو تعليقا على ما أرسلت، لكنك ولأول مرة لم تسعفيني بنصائحك المنقذة، حتى إنني كدت أستنطق البريد وكأني لا أصدق أنه لم يأت برسالة منك، فلعل الذي منعك خير أو انشغال غير ذي بال، أما أنا فغارقة في هموم الغير ولا أريد أن أستوقف نفسي كي أسألها لماذا؟ في الحقيقة وجدت أن قلبي يترعرع في صدري حين أسقيه بالاهتمام بالآخرين وحل مشاكلهم، لكنني اليوم أجد نفسي عاجزة عن إيصال فهمي للحياة

لمخيلـة زميلتـي حنـان، هذه الفتاة الشـفافة الروح كم يصعب اختـراق روحهـا بقناعـات تخالف واقع الحلم لديها، فلقد أصبحت تـرى فـي هشـام ذلك الرجـل النبيل المترفع عن سـفالات الرجال، وتأبـى منـي أي تقريـب لهـا من حقيقة الواقع وأنـه ليس هناك رجل شريف في هذا الزمن.

لا تقولي إنني أبالغ يا عزيزتي، فهنا – فقط – في مجتمع نسوي صغير كسـكننا الداخلي تعرفين أن الذئاب في كل مكان تنتظر فقط إشـارة من فريسـة، أقول إشـارة لأن هذا هو الفرق بين ذئاب البشـر وذئاب الحيوان، هنا لا يأتي المفترس إلا برضوخ الضحية، ولا يقتل سوى قلبها ومشاعرها في مجزرة حب موجعة.

ربما لكثرة القصص الحزينة حولي كرهت كائن الرجل، كرهت كل فنون الكذب التي يجيدها ببراعة كي يسـلب قلب الأنثى، ربما سأعاني كثيراً حين أفكر يوماً بالارتباط.. محبتك هند.

غاليتـي هنـد: أنـا الآن غاضبـة مـن إسـرافك أنت بسـوء الظن بالرجال، وأخشى أن تفسدي عقل المسكينة حنان، لذا لا تتدخلي في قصتها، ولتتركي أفكارك المسبقة عن الرجل، ولا تنصبي له المشانق لهفوة أو هفوتين، إن هو إلا رجل.. ربما يجد الحب الصادق طريقه إلى قلب هشام فيكون مع حنان ثنائيا جميلا يستحق السعادة، لربما يرى فيها كل جمال الروح

فتغنيـه عـن كل النـزوات والهفوات، فالرجل دائما يبحث عن أنثاه هو وليس إناث الغير. محبتك نوال..

عزيزتي نوال: لا أدري ماذا أقول لك أيتها المنقذة الرائعة، ففي الأيام التي لحقت رسالتك الأخيرة استمعت لنصحك بشأن أفكاري

الخاصة حول الرجال ولم ألقنها لزميلتي حنان، واكتفيت بالمراقبة فقط لتطور سير علاقتهما الرائعة. وها هي حنان تحكي لي شطراً مما يقوله هذا «الهشام» الذي وجد فعلا في حنان ما لم يجده في أي فتاة أخرى، لقد ربط الحب بينهما ولم يتبق سوى الرباط الشرعي الذي يتوج جمال الحب، إنني أراها في الحجرة معنا

ولا أراها بيننا فروحها محلقة في سماء أخرى، فما أجمل الحب يا صديقتي كيف يضفي على النفس جمالاً وإشراقاً يكاد يضيء ألقه في النفوس، إنه شمس صغيرة يحويها صدر نابض بالعشق.. محبتك هند..

صديقتي نوال: أعتقد أن الأيام القادمة ستكون عصيبة علي، فستقل مراسلتي لك بسبب الامتحانات النهائية.. لا أريد في أول عام أن أتحصل على مجموع ضعيف، حتى إنني سأتوقف عن هوايتي في فتح خزائن قلبي لكل شاكية باكية لأتفرغ للدراسة فقط.

حنان أيضاً تأمل نتيجة جيدة للامتحانات، ففي الإجازة ستتم خطبتها لهشام. أما مايسة فهي تلك الطائشة كعادتها، وأشك أنها تبالي كيف تكون نتيجتها.. محبتك هند.

عزيزتي نوال: أكتب لك رسالتي هذه بالدموع قبل الحروف، فما حدث أعجزني عن الدراسة وعن الكتابة وعن التفاؤل بشيء.. لعلك تذكرين ما أخبرتك به من فعل مايسة وانتحالها لشخصية حنان في مواعيدها الغرامية بسبب ارتدائهما النقاب، ولم أكن أتخيل أن تنتهي القصة على هذا النحو المأساوي الذي آلت إليه.. لقد دخلت علي حنان هذا الصباح وهي تكابد سكرات وجع لم أشعر بمثيل له، كانت تبكي بحرقة يكاد دمعها يسلخ وجهها لتدفقه المحرق

كالحمـم، لـم تكـن قادرة على الكلام.. فقـط البكاء بذهول وصدمة آلمتني حتى الموت..

حاولـت تهدئتهـا كثيـراً كـي أعلم ما فعل بها هشـام هـذا، فأنا على يقين أنه هو سـبب وجعها كما كان سـبباً في فرحها وسـعادتها، فأخبرتنـي مـن بيـن الدموع والدوار الذي ألم بها أنه نعتها بالسـاقطة وأنه لن يربط اسـمه بفتاة مثلها.. لقد كانت كلمة تسـقط لها النجوم من السـماء.. كلمة مزقتها أشـلاء كما تفعل القنابل في مدن جميلة، لقد قتلت حنان بكلمة.

نامـت حنـان، أو غابـت عن الوعي، فقـد كان الذهول والعجز يشل حركتي وتفكيري، فكرت أن أذهب إليه وأخبره بحقيقة الأمر، وقد فعلت..

اسـتقبلني بابتسـامة عريضـة، وقـد كنـت أعـرف أن الرجال لا قلـوب لهـم.. ربمـا يحبون النسـاء بعقولهم أو حتى بشـهواتهم، أما قلوبهـم فهـي معطلـة عن خدمة كهذه.. لم يكن وقوفي أمامه سـهلاً وأنا أسـرد قصص عام جامعي طويل عن زميلتي الحجرة عن حنان البريئة وعن مايسة وأفعالها، ولكم أصبت بالذهول وهو يقول:

– مـع هـذا يـا أخت هند لا فائدة، لن آخذ كل شـاب أخبرني قصتـه مـع زوجتـي لأحكـي لـه عـن الفتـاة التـي انتحلـت شخصيتها.. لقد تلوث اسمها كثيراً، وهذا يكفي.

صديقتـي نـوال: لا أدري.. يبـدو أن الرجـال أيضـاً لا عقـول لهـم.. لقـد تركتـه بعد أن وعدني أنه سـيعتذر إلى حنان ويطلب من إدارة الجامعة فصل مايسة، لكنه طلب مني إخبارها عن عدم رغبته بمواصلة العلاقة..

حيـن عـدت إلـى حنان أخبرهـا عن ذهابي لهشـام كانت تبدو كزجاجـة تناثـرت علـى أرض الحجرة، كانـت تلملم كتبها وأوراقها وملابسها في الحقيبة وهي ذاهلة كمن هبط إلى أرض لا يعرفها بعد أن حلق مطولاً في السماء.. وأنا أحدثها أحسست أنها لا تسمع أو ترى ما حولها، لكنها قالت بهمس خفيض كمن يحتضر:

– لا أريـد اعتـذاراً يـا هنـد.. لا أريـد أن أرى هذا الذي قتلني مرتين.. حرمني منه وحرمني من نفسي، سأرحل الآن، أخي في الطريق لأخذي.

عزيزتي نوال: لقد رحلت حنان أو بقايا حنان، وفُصلت مايسة من الجامعة.

لقـد تغيـرت كثيـراً.. لم أعد أثق بأحد، لم أعد أسـمع شـكوى لأحـد.. لـم أعد أحتـرم الرجال، ولقد نزعت نقابـي، وأعلنت حرباً ضد النقاب.

الغبية والوحش

كانت تكابد صراخ السهر، ضجيجاً بين جفنيها، وجذوة من اللهب المشتعل، هي أفكارها اتكأت على دقات الساعة ربما يتعاطف معها الوقت ويتركها تغفو..

قالت: سأحكي لنفسي قصة ما قبل النوم ربما أساعد نفسي في الانغماس في حلم.. أعرفني لا أحب عد الخراف حولنا فهي أكثر من أن تعد.. ما رأيك يا أنا بحكايات لونها أخضر، لها رائحة الطفولة البعيدة؟ هي كثيرة لكل منها ركن خاص في ذاكرتنا وأحلامنا الصغيرة، ما رأيك بقصة ليلى والذئب؟

قالت: لا أحب الطريقة التي استدرجت بها ليلى الذئب النبيل أو كيف اغتصبت قلبه حتى أكلها كلها ولفظها جثة هامدة..

قالت: هل أحكي لك قصة الأميرة النائمة التي ملت اليقظة والانتظار فنامت كثيراً، ومر بها أمير عابث التهم شفتيها في قبلة فأصبحت ميتة!؟ أم أحكي لك قصة سندريلا حين كانت ضائعة أمام مركز تجاري كبير لبيع الأحذية وكانت حافية القدمين قد انتعل الأمير قلبها!؟ هل أحكي لك كيف جابت مدينة الأحلام في عربة من اليقطين يقودها رجل الثلج حتى رافقها الصقيع بقية عمرها!؟ هل أحكي لك قصة الجميلة والوحش!؟ هذه ستروقك كثيراً..

يحكى في أغرب الحكايات أنه كان هناك إنسانة جميلة يفيض جمالها سحراً وجاذبية، خطب ودها أكثر الأمراء ثراء في

وسامة الأخلاق، تمناها كل من لامسته هالتها العجيبة، لكنها أحبت صاحب القلعة وكان وحشاً حقيقياً، يفترس القلوب ويجردها من الحياة، يملؤه النزق والسخط والغضب من كل ما حوله.

وفي يومٍ مشؤوم ذهبت الجميلة المفتونة بأقدامها الصغيرة إلى قلعة الوحش، قالت له وهي تدني إليه قطاف ثمارها الشهية هدية حب:

- أيها الوحش القاسي: أحببتك أنت دون كل البشر.. فهل تقبل بي؟

أجابها الوحش المغرور: أعتذر أيتها الأميرة، أنا لا أحب النساء القبيحات مثلك.

انفطر قلب الأميرة حتى غزا حياتها القبح، تساءلت لماذا لم يرَ الوحش سوى القبح فيها وقد رأت كل شيء فيه جميل؟ هل لأن داخله قبيح مهما تجمل بالكذب وتزين بالكلمات؟ هل لأن إناءه فاض بما يحتويه أم لأنه رأى داخلها نفسه وقد تربع على عرش قلبها؟ فهناك كان يسكن منذ عشقته.

هل أعجبتك القصة يا أنا؟

ستنامين الآن وقد أدركتِ أنه ليس كل شيء كما يبدو لنا..!!

خيانة

أتاها الخبر عن طريق المصادفة ودون مقدمات, لقد توفيت مع زوجها في حادث سير وهما في طريقهما إلى شواطئ مدينة عدن.

في البداية لم تفهم سيل الكلمات والنشيج على الطرف الآخر من الهاتف, كانت المتحدثة تقول بصوت هستيري :

_ ماذا حدث يا خيرية, هل حقاً ماتت أختك صباح مع زوجها فجر اليوم ؟ والأولاد أين كانوا ؟ هل أصيب أحد في الحادث؟ سننزل من القرية لوداع صباح الحنون ..لماذا أخذها الموت بغتة هكذا ؟

عرفت أن المتحدثة أبنة خالتها اللدود, وأنها ظنتها خيرية شقيقتها, ولكن الذي لم تفهمه لماذا كان الحزن يستولي على كلماتها وهي تنعيها لها وهما بالكاد تحتملان رؤية بعضهما؟

يبدو الخبر كالكابوس .. توالت الاتصالات تعزيها في نفسها وفي زوجها, ماذا جرى للناس اليوم ؟

لم تعد تقوى على الوقوف؛ المخيف إن زوجها في طريقه إلى عدن في عمل طارئ .

أختها خيرية كانت أول الواصلين إليها, وكانت تولول بحرقة وألم وحين رأتها شهقت بفجيعة !! ثم صمتت تماماً .

فجأة أمتلأ المنزل بالنساء المستطلعات والمعزيات والباكيات, لقد انتشر خبر وفاتها مع زوجها قبل أن يصل إليها.

وفي خلطة عجيبة من الحزن والفرح أطلعتها صديقتها المقربة أن زوجها مات في حادث سير مع هي .. لكنها لم تكن هي فمن تكون ؟

إنها أخرى ولا شك ..

إنها لا تشعر بفجيعة الموت وإنما يتفاقم شهورها بالإهانة, لم تكن قادرة على البكاء بعد أن تيقنت من موت زوجها, كلما همت بالنشيج تذكرت الأخرى فتعلق الدمع في أهدابها رافضا الهطول ..

المنزل أكتظ بالنساء والصراخ, لم يعد هادئا مرتباً كما كان في الصباح, البكاء والشهقات لم تكن الطاغية فقط, فأصوات خافتة تحمل الرثاء النسوي المعتاد مشفقة على الزوجة الغافلة التي ذهب زوجها كي يقضي أياما مع عروسه الجديدة في سواحل عدن, وأصوات أخرى تقسم أن صباح ولية من أولياء الله الغافلين قد أنصف لها الله مبكراً من خيانة زوجها .

لكن اللحظة العصيبة لم تأتي ..

كان جثمان الزوج في طريقه إلى المنزل لإلقاء نظرة أخيرة عليه ..

المدينة كلها هنا في منزلها لإلقاء النظرة الأخيرة على زوجها معها ..

كل الفضول النسوي هنا ..وكلمات الرثاء التي يتشدقن بها في تلذذ, وهن ينسجن بروفات قصتها المحزنة التي ستطير في الآفاق ..

ربما شعرت برغبة في إلقاء نظرة على الجثمان؛ ربما تكتشف أنه لم يخنها ولم يكن هو.

ربما كان زوج لامرأة تدعي صباح غيرها ..

وزوجتـه الأخـرى كانـت في طريقها لمنـزل أهلها لإلقاء نظرة أخيرة أيضاً ..

حين وصل جثمان الزوج سـقطت بعض النسـوة مغشياً عليهن مـن هـول الفاجعـة, ووقفـت هي ثابتة .. يجـب أن تبقى ثابتة ..ربما لم يخنها ..

أفسح المشيعون المكان للحظات الوداع المؤثرة ..

كانـت تقتـرب ..كأنهـا تبتعـد .. ها هو زوجها والد أطفالها في منزله لآخر مرة, تأملت ملامحة الميتة وسقطت دموعها كالسيل قبل أن تنحني عليه هامسة في أذنه :

_ لن أغفر لك .. زواجك بأخرى أبداً .

الراعي والطفلة

ذلـك الصبـاح وهـو يخرج البقرات شـعر بتوجس وعدم راحة مبهمة بلا سبب.

لكنـه عـزى الأمر لكونه سـيذهب بالبقرات لمرعـى آخر بعيداً من المرعى المعتاد؛ زاد ضيقه لتذكره الأمر؛ وهمهم بامتعاض حين عجـز عـن فـك ربطة الحبل الغليظ بين يديه جمع قطيع البقر خارج الزريبة وتناول عصاه الغليظ .

نادى أبنته الصغيرة التي ترافقه دوما في الذهاب إلى المرعى؛ كانت عصاه الأخرى التي تهش معه الماشـية الشـاردة ادركته بعض الراحة وهو يمسك بيدها لقد صارت جزءا من ذراعه بمرور العمر؛ يكاد يشعر بالنقص حين تنفصل عن يده .

بدأ المسير وهو يحاول نظم البقرات فلا تشرد أحداها وتخرج عن خط السير .

« يا قوة الله ما أصعب أن يقود المرء بقراته داخل هذه الشوارع المزدحمة»

بداء يحدث نفسه بغيظ .

لقـد طغـت المدينـة علـى مناطـق الريـف وافسـدت حياتهـم وحقولهم وحتى طرقهم الترابية الآمنة.

« هذا المرعى صار بعيدا الآن بعد أن كانت تفصله بضعة حقول لا يشعر بقلق وهو يعبرها؛ لقد صار لزاما أن يعبر شوارع تمرق فيها

سيارات طائشة ويزدحم حواليها الناس بكثرة؛ إيه ..يا قوة الله .

وصمت يحملق في السماء الصافية؛ ويعود ليسقط نظراته على بقراته .

«هيـه انتظـري يـا أماه توقفي « هكذا ينادي بقراته بتدليل وحب أبوي .

أسـرع يجـري نحـو البقرة الشـاردة وعصاه بيـده اليمنى وأبنته معلقـة كالمعتـاد بيده اليسـرى؛ لم يسـبق له أن تـرك يد صغيرته أبدا حتـى وهـو يتقافـز ليعيـد بقراته الشـاردة يظل يسـحبها خلفه في كل خطوة كجزء منه .

صاحت الفتاة وقد رأت القطيع يعود لانتظامه :

_عندما أكبر سوف أساعدك يا أبي؛ أنا من جهة وأنت من جهة أخرى .

« يـا لهـذا الحـر « نفث بضيق : عندما تكبرين لن تخرجي معي بل تظلين في البيت تساعدين أمك .

ضحكت الفتاة بثقة ودلال :

_وهل تبقي يدك اليسرى فارغة يا أبي ؟ بيد من ستمسك غيري ؟

لم يجب فقد وصل إلى حيث ازدحام اللحم بالحديد؛ البشـر والسـيارات؛ لشـد مـا يكرهـا؛ ضجيج يتعالى فـي كل ركن وعيون تحدق بعجب لهذا الراعي المجنون وأطفال يهربون من أمام القرون الملتفة للبقرات.

« مـا أقـل أن يـروا قطيـع كهـذا يمـر في مكان كهـذا» تمتم في نفسـه في شـبه ابتسـامة وأخذ يجري هنا وهناك وأبنته تطير خلفه لا

تكاد قدماها تلامس الأرض؛ لكنها تشعر بسعادة بالغة وهي ترى أباها لا يفلت يدها أبدا رغم كونها عبئا عليه فقد صار القطيع أكثر اضطرابا لمروق السيارات بمحاذاته وتعالي الضجيج بشكل غير معتاد والراعي يحاول جاهدا أن يحافظ على انتظام القطيع .

«لم يبق إلا القليل ونخرج من هذا المكان يا قوة الله « انتظري أيتها البقرة اللعينة؛ سوف تصدمها السيارات إن استمرت في جنونها »

ضربها بعنف لم يسبق أن ارتكبه مع أي بقرة « يا للبقرة المسكينة لكنها تستحق «

كان يعبر الشارع وقد لفه التوتر وأحس بالندم والضيق لفكرة تغيير المرعى .

« لن أعود إلى هذا المرعى أبدا ولو كانت أعشابه من ذهب «

مد بصره ليرى بداية قطيعه وارتفعت يده الممسكة بالعصا لتمسح قطرات العرق بظهر كفه؛ والتفت إلى الصغيرة قائلا :

_ هيه ..هذه المرة متعبة أليس كذلك ؟ لقد تعبت يا صغيرتي .

أعاد نظره إلى القطيع دون أن ينتظر إجابة وعاد يقول :

_لا عليك يا بنيتي سوف ترتاحين بعد قليل .» يا قوة الله .. البقرة اللعينة هيه انتظري.

وأخذ يعدو نحو البقرة الشاردة بكامل طاقته؛ وأشفق على الصغيرة التي يسحبها وراءه فتخلى عن يدها لأول مرة .

شعر أن يده اليسرى فارغة؛ بل جنبه الأيسر فرغ فجأة فتذكر كلمات ابنته .

أحست الفتاة بالرعب فأخذت تعدو نحو أبيها ويدها ممدودة

نحوه ؛ لم يلتفت إليها بل هرول نحو البقرة التي اتجهت إلى وسط الشارع محاولا إعادتها .

تناهى إلى سمعه صراخ وضجيج أشخاص يصرخون : انتبه .. توقفي ..

ظن الناس يحتجون بسبب البقرة التي قطعت الشارع فأخذ يضربها بغيظ والتفت إلى الوراء إلى حيث ترك الصغيرة فلم يجدها .

وجد جماعة من الناس وقد تحلقوا يحدقون بشيء وسط الشارع وقد علا الصراخ والضجيج .

هرول نحوهم وهو يصيح :

_ يا قوة الله ..الصغيرة .. ابنتي .. أين هي ؟ البقرة اللعينة هي السبب .

وصل حيث يتحلق الناس ليجد ابنته غارقة في دماءها ويدها ممدودة كأنما تناشده أن يمسك بها كعهدهما .

فصرخ صرخة مهولة ومد كلتا يديه ليمسك بيدها التي لم يفارقها الدفء بعد .

لقد أحس أنه فقد قلبه وأصبح جوفه فارغا حين تخلى عن كفها الصغير ..

مجزرة خيرية

وقفت تنتظر البائع المتجول حتى يعد لها ما طلبت من فاكهة الرمان وعيناها تجول في الشارع الخالي من الزحام المفترض؛ فقد اعتادت الخروج باكرا لجولة صباحية وشراء ما تحتاج إليه من خضار وفاكهة قبل ازدحام الشارع .

كانت تتأمل الأكياس البلاستيكية الفارغة وهي تتكوم فوق بعضها بفعل الريح هروبا من برد ديسمبر قبل أن تصطدم نظراتها به ..

عارياً إلا من مِزق ثوب يكشف ولا يستر؛ كان يحاول تطويع قطعة كرتون قاسية علها تعتنق جسده البارد وتبعث فيه الدفء؛ عبثاً يحاول أن يرتديها أو يلتحفها فتظل على صلابتها كقطعة كرتون صلبتها الأوساخ .

صدمها المشهد ..هذا الإنسان فاقد لعقله .. لكنها فقدت قدرتها على مساعدته ..

منذ وقت طويل لم تعد تفكر بمساعدة محتاج أو تكسو عارياً كهذا .. ولن تفعل ..

ستبكي حزنا لمشهد أثر البرد على حركاته المضطربة وستتذكر ذلك اليوم المروع والدامي الذي كانت سببا في مجزرة ذهب ضحيتها ثلاثة رجال ..

كانت قد حملت كيسين كبيرين فيهما ملابس رجالية لم يعد

زوجها يستخدمها؛ ملابس كثيرة تكومت في خزانات الثياب في الوقت الذي لا يجد الكثير ما يستر أجسادهم من برد أو شمس .

يومها استقلت سيارة أجرة فقد كان الكيسين ثقيلا الحمل وذهبت إلى ذلك الرصيف الذي دائما ما تشاهد فيه العمال جلوساً انتظارا لطالبين العمل ؛ كلما مرت من أمام تجمعهم البشري آلمها كثيرا رؤية الفقر جليّاً في ثيابهم ونظراتهم وملامح وجوههم التي انهكها العوز والوضع ..

وقفت بعيداً تفكر كيف تناولهم أكياس الثياب وأخيراً أهتدى تفكيرها لطريقة لا تسبب إحراجا لها أو حرجا لهم .

كانت قد لاحظت وجود أحدهم يبدوا كأنه مسؤولا عنهم بطريقة ما فقد كان أكبرهم سناً.

طلبت من أحد الأولاد المارين أن يدعوه لأجابتها وأشارت إليه فأسرع الولد وأخبر الرجل أن سيدة تقف في ركن الشارع تدعوه لأمر ما.

أقبل الرجل المسن إليها والدهشة ظاهرة على وجهه فلم يسبق أن أتت امرأة تبحث عن عمال بنفسها؛ وصل إليها وقد زادت دهشته وهو يرى الكيسين الكبيرين أمامها .

شرحت له بسرعة عن رغبتها أن يتفضل عليها بتوزيع الملابس على العمال بحيث يأخذ كل شخص ما يناسب حجمه .

راجية منه ألا يشير لوجودها فهي ستذهب لتوها .

وأكملت حديثها وتحركت مبتعدة والعامل المسن يلاحقها بالشكر والدعاء على صنيعها .

لا تدري لماذا فكرت أن تملأ عينيها بمشهد السعادة البسيطة

فـي عيـون وحـركات العمـال وهـم يتقاسـمون تلك الثيـاب الثمينة والجميلة .

وقفـت بعيـدا وهي تراهم يتحلقون حول الكيسـين بلهفة وكل واحد يتأمل ما صادفت يداه.

وحتى الآن لا تفهم كيف أنتهي الأمر بتلك الصورة المروعة ..

حين جذب أحد العمال قطعة ملابس من يد رفيقه عنوة كأنها أعجبتـه وأرادهـا لنفسـه وأسـتمر الجذب وأرتفع الصـراخ وانهالت صفعـة فـي وجـه أحدهـم؛ ثم تلك المطرقة التي اسـتقرت في رأس الآخـر؛ وأخيـر تدخـل ثالث حين فقـد صوابه ضربا بأداة معدنية من أدوات العمال على رأس القاتل الأول ..

وحتى الآن لم تخبر أحدا أنها كانت سبباً في تلك المجزرة ..

وأن قتيلين دفنا ذلك اليوم؛ والثالث ينتظر حكما بالإعدام ..

ولكنهـا فـي طريق العـودة إلى منزلها كانت ذاهلة تحمل أثقالا من الحزن والندم لا تقارن بثقل أكياس الثياب في طريق ذهابها .

مجنون

يبقى هناك في ساعات الليل المتأخرة وحيدا .

و كالعـادة يتنقـل بيـن الأرصفـة بلهفة باحثاً عـن مكان ينزوي فيه , يحاول حشر نفسه في الفراغ البارد دون جدوى , كان يتلمس أنفاساً دافئة بعينيه تقبع هنا أو هناك , يتمنى أن يعتصره الدفء مرة أخرى في العمر, أن يشعر بالقرب من لا شيء.

الريـاح فقـط تشـهد مأسـاته , ولكنها لا تشـفق علـى المجانين أو العقـلاء تحـاول قـذف كل شـيء في طريقهـا وزحزحة كل ثابت , ولكم يغضبها صدره العاري حين يصدها ويشـتت شـملها, هازئا من إغوائها .

فتثأر هادرة في أذنيه تجذبه نحوها تارة وتدفعه أخرى.

تلتف حول جسده نصف العاري لتحرقه ببرودتها بلا جدوى , لقد ترك مزية الشعور منذ زمن طويل .

هكـذا تقضـي الريـاح لياليهـا , تغـوي المجانين فـي الطرقات ويبيتون في أحضانها .

مرقت سيارة مزقت الصمت وهدير الريح .

كان السائق يبتسم و هو يرى الرجل العاري يجري من رصيف إلى آخر , يجرجر خلفه أسمال قذرة فيما يشبه بقايا بطانية لا يعرف لها لون.

اتسعت ابتسامته وهو يحادث جاره في السيارة :

_ أتعـرف هـذا المجنـون هنـاك إنـه يظل طوال الليـل يقفز من رصيف إلى آخر باحثا عن مكان ينام فيه على أحدها .

إنـه يعتقـد أن كل الأرصفـة مليئة بالناس أمثاله حتى أنه لا يجد مكانا يندس فيه فتراه يحاول أحياناً أن يحشر نفسه حشراً وكأنه في مكان ضيق فعلا.

هتف زميله مندهشا :

_ يا للعجب؟

رد السـائق : إنه يظل طوال الليل على هذه الحالة ولا ينام إلا فـي الصبـاح , حيـن يسـتيقظ جميـع النائمين علـى الأرصفة و يفرغ المكان له بحسب ظنه..

حينها ينام قرير العين وإن تعثرت به أقدام الناس على الرصيف أثناء مرورهم فهو يرى أن الرصيف قد خلى من البشر فعلا.)

تمت بحمد الله